**التعليق على كتاب "القواعد الحسان"**

**فضيلة الشيخ/ د. فهد بن سليمان الفهيد**

الحمد لله رب العالمين، اللهم صلِّ وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعدُ؛ فنشكر الله -سبحانه وتعالى- على تيسير هذا اللقاء في هذا الجامع المبارك، ومع هذه المجموعة المباركة من طلبة العلم -وفقهم الله وزادهم الله توفيقًا وسدادًا وإخلاصًا وإصابةً للسنة وعلمًا نافعًا وعملًا صالحًا.

والكتاب الذي بين أيدينا هو كتاب "القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن" للشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي -رَحِمَهُ اللهُ- صاحب التآليف المشهورة النافعة المفيدة، وهو من أهل العناية بالتفسير، وكذلك بقيَّة العلوم الشرعية، وقد توفي سنة 1376 هـ يعني قبل نحو سبعين سنة تقريبًا، وألف هذا الكتاب كما ألف كتبًا أخرى في التفسير، كتابًا مشهورًا في تفسير القرآن مطبوع ومتداول، لكن هذا الكتاب فيه فوائد عظيمة جدًّا، وهي بمنزلة القواعد -كما سمَّاها الشيخ- وقد لا يتيسَّر قراءة الكتاب في مجلس واحد أو مجلسين أو ثلاثة، بل أظن أنه يحتاج على أقل تقدير خمسة عشر مجلسًا، فالقراءة في هذا اليوم هي بمنزلة المفتاح لطالب العلم ليتشجَّع على قراءة الكتاب كاملًا، ومراجعته مرة بعدَ مرَّة.

وهذا الكتاب الذي بين أيديكم -القواعد الحسان- يُعينكَ على فهم الأصول الكبار، والطريقة الصحيحة والمنهج السليم في تفسير القرآن العظيم، والقرآن العظيم هو حبل الله المتين، وهو صراطه المستقيم، وهو الذي أمرنا الله بالتَّمسُّك به، فقال: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ \* وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: 43، 44]، فهو ذكرٌ تذكرون الله به، وذكرٌ أي: شرف لكم.

وقارئ القرآن والعامل بالقرآن والمتدبر للقرآن حاز على شرفٍ أي شرفٍ هو، وحاز على فضلٍ أي فضل هو! فضل لا نظير له، لتقر عينه ولتسعد بكتاب الله -عَزَّ وَجَلَّ- ولينشرح صدره، وليطمئن قلبه بكتاب الله -عَزَّ وَجَلَّ-، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28].

وهذا القرآن العظيم فيه خبر من قبلكم، ونبأ ما بعدكم، هو صراط الله المستقيم، مَن حكمَ به عدل، ومَن تمسَّك به نجا، ومَن دعا إليه هُدي إلى صراطٍ مستقيم، هذا القرآن هو حجَّة الله على الخلق، وهو أعظم آيات النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فهذا القرآن العظيم فضائله لا تحصى، أوحاه الله إلى رسوله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فتلاه على الناس، قال تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ [الإسراء: 106]، وهذا القرآن العظيم هو الوحي، وكذلك السنة المطهرة هي الوحي، فلا يؤخذ بالقرآن وتُترك السنة، ولا يُمكن أن يُفهم القرآن إلا إذا عملتم بالسنة، قال -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: 137]، وقال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: 7].

ومن الأمر العظيم: أن نستقيم على العمل بالقرآن والإيمان بالقرآن كما استقام على ذلك أفضل الخلق بعد الأنبياء، وهم أصحاب الرسول -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، ولهذا فإن معرفة تفسيرهم وكلماتهم في القرآن العظيم هو أعظم ما يُعينك، فالقرآن يفسَّر بالقرآن ويوضِّحه القرآن، وتوضحه أيضًا السنَّة الصحيحة عن نبينا -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وكذلك كلام الصحابة -رَضِيَ اللهُ عَنْهُم- الذين هم أعلم الناس بالتأويل، ثم مَن بعدهم من أئمَّة العلم وأوعيته الذين حفظوا القرآن والسنة وساروا على نهج الصحابة من أئمَّة التابعين، وأقوالهم محفوظة مثل مجاهد بن جبر المكي، والذين رووا عن الصحابة وهم كثير.

ثم أتباع التابعين، ثم أئمَّة السنَّة الذين شهد لهم أهل العلم، وشهد لهم أئمَّة الدنيا بالإمامة في الدين والإتقان والصدق، وتحري إصابة الحق، والعمل بالكتاب والسنة؛ فهؤلاء هم أئمَّة أهل الأثر، جمعوا بين العلم بالشريعة، والعلم باللغة العربية، والعلم بوجوه التفسير المنقولة عن الصحابة، وقد اجتهدَ شيخُ المفسرين وإمامهم في زمنه وبعده وهو ابن جرير الطبري في جمعِ كلامهم في تفسيره المشهور، وقد أوعب في ذلك وأجادَ -رحمة الله عليه- والناس بعدَه عيال عليه -كما يُقال.

ثم جاء بعده جمعٌ غفير من أئمة العلم والدين قاموا بجهودٍ كثيرة، ومن أبرزهم ابن كثير الدمشقي الشافعي -رَحِمَهُ اللهُ- صاحب التفسير المشهور الذي كتب الله له القبول في الأرض.

ثم بعدهم خلق، ولكن هناك مَن وقع في أخطاء في التفسير بسبب البدع أو بسبب التعصُّب، أو بأسباب أخرى، كمن يحج بالأحاديث المكذوبة والضعيفة والأقوال الساقطة فيذكرها ويحشرها في التفسير، فنبَّه أئمَّة السنة على هذه الأغلاط ونهو عنها.

ثم جاء بعدهم أقوامٌ من أهل العلم -رحمة الله عليهم- وكلٌّ منهم يغرف بدلوه، فمن كان منهم معروفًا بالفقه غلبَ على تفسيره المسائل الفقهيَّة، ومَن كان منهم معروفًا باللغةِ غلبَ على تفسيره الاشتغال بفنون اللغة، ومَن كان منهم معروفًا بالسيرة والتاريخ أوردَ هذا في تفسيره، فصار هناك مشارب متعددة لأهل العلم، فطالب العلم يستفيد من هؤلاء.

ومن أئمة التفسير وخاتمة المفسرين -إن صحَّ التعبير- وإلا فليس هناك خاتمة، لكن من كبارهم وعلمائهم: هذا الرجل الجليل والعلامة الفاضل عبد الرحمن بن ناصر السعدي -رَحِمَهُ اللهُ- فهو إمام حقيقة، ويعرف ذلك بالنَّظر في تفسيره، ويُعرف ذلك بالنَّظر في هذا الكتاب الذي بين أيدينا.

ونحن الآن في اليوم الخامس والعشرين من شهر شعبان، وقد بقي على دخول شهر رمضان أربعة أو خمسة أيام، وشهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن، وأهل العلم يتركون العلوم كلها ويشتغلون بالقرآن، ومن الاشتغال بالقرآن الاشتغال بالتفسير، فشكر الله لإخوتنا الذين نظَّموا هذه الدروس تهيئةً للنفوس، وتشجيعًا للمؤمنين في الإقبال على القرآن العظيم في هذا الشهر الكريم.

هذا الكتاب بدأ الشيخ بكتابته في أول يوم من رمضان، والكتابة التي كتبها بناء على التدبر، فهو يقرأ القرآن ثم يجلس قليلًا يدون هذه الفوائد التي سنقرؤها الآن، وهذا من بركة أهل العلم، ومن بركة القرآن، ومن بركة رمضان، فبدأ في أول يوم من رمضان، وانتهى من الكتاب في اليوم السادس من شوال، خمسة وثلاثين يومًا، وجمع فيه إحدى وسبعين قاعدة، يعني تقريبًا في كل يوم قاعدتين، وقد ينشط في يوم ويكتب ثلاث أو أربع قواعد، ويوم لا يكتب شيئًا -والله أعلم.

وهذا الكتاب كتابٌ نفيس ومفيد، ويعينك على فهم القرآن، وربما نأخذ مواضع منه للدلالة على باقيه.

وهناك شروح لو احتجت إليها، وإنما العبارات أغلبها واضحة، ولا يوجد عبارات غامضة، ولكن الشروح تعينك وتفتح لك آفاق، فأهل العلم -جزاهم الله خيرًا- ينفع الله بهم وبشروحهم، ومن أقدم هذه الشروح شرح الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين -رَحِمَهُ اللهُ- في عام 1407 هـ تقريبًا، وهو مطبوع، فتم تفريغ الشرح وطُبِعَ ولله الحمد ومتداول. وهناك شروح لعدد من المشايخ وطلبة العلم موجودة تعينك على فهم هذا الكتاب لو احتجت إلى الفهم، والشروح أيضًا مفيدة بالجملة.

نقرأ الآن المقدمة، ونقرأ بعض القواعد، لأن عندنا درسين أو ثلاثة فقط، فنعتذر منكم عن إكمال الكتاب، لأننا لا نتوقع ذلك، ولكن نرجو الله -سبحانه وتعالى- أن يكون هذا دافعًا لنا ومشجِّعًا لنا أن نقرأ الكتاب وحدنا قراءةً جيدة، خصوصًا ونحنُ مقبلون على شهر القرآن، وأخونا محمد بن سلطان المقيرن هو الذي يقرأ الكتاب -جزاه الله خيرًا- ونشكر الإخوة القائمين على التسجيل والتوثيق، مركز الروضة ووزارة الشؤون الإسلامية، ومَن يقوم على هذا الجامع المبارك، فجزى الله الجميع خير الجزاء.

{الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

اللهم اغفر لشيخنا ولنا ولوالدينا ومشايخنا والمسلمين.

قال الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي المتوفى عام 1376 من الهجرة في كتاب "القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن":

(مقدمة:

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرًا

أما بعد

فهذه أصول وقواعد في تفسير القرآن الكريم، جليلة المقدار، عظيمة النفع، تعين قارئها ومتأملها على فهم كلام الله، والاهتداء به، ومخبرها أجل من وصفها. فإنها تفتح للعبد من طرق التفسير، ومنهاج الفهم عن الله: ما يغني عن كثير من التفاسير الخالية من هذه البحوث النافعة.

أرجو الله وأسأله أن يتم ما قصدنا إيراده، ويفتح لنا من خزائن جوده وكرمه ما يكون سببًا للوصول إلى العلم النافع، والهدى الكامل)}.

الشيخ محمد بن عثيمين -رَحِمَهُ اللهُ- علَّقَ على هذا الكلام فقال: "ثناء الشيخ على كتابه ليس من باب الفخر، فأنا أعلم الناس بشيخي" لأن الشيخ السعدي هو شيخ لمحمد بن عثيمين.

يقول الشيخ ابن عثيمين: "فأنا أعلم الناس به، ولكن هذا ليحث القارئ أن يطلع على هذه المعلومات المفيدة، فمخبرها أجل من وصفها"، يعني إذا قرأت ستجد فوائد أكثر مما أوصف لك، فهذا تشجيع لك على القراءة.

قال -رَحِمَهُ اللهُ: (واعلم أن علم التفسير أجل العلوم على الإطلاق، وأفضلها وأوجبها وأحبها إلى الله، لأن الله أمر بتدبر كتابه، والتفكر في معانيه، والاهتداء بآياته، وأثنى على القائمين بذلك، وجعلهم في أعلى المراتب، ووعدهم أسنى المواهب، فلو أنفق العبد جواهر عمره في هذا الفن، لم يكن ذلك كثيرًا في جنب ما هو أفضل المطالب، وأعظم المقاصد، وأصل الأصول كلها، وقاعدة أساس السعادة في الدارين، وصلاح أمور الدين والدنيا والآخرة، وبه يتحقق للعبد حياة زاهرة بالهدى والخير والرحمة، ويهيئ الله له أطيب الحياة والباقيات الصالحات.

فلنشرع الآن بذكر القواعد والضوابط على وجه الإيجاز الذي يحصل به المقصود، لأنه إذا انفتح للعبد الباب، وتمهدت عنده القاعدة الأسباب، وتدرب منها بعدة أمثلة توضحها وتبين طريقها ومنهجها، لم يحتج إلى زيادة البسط وكثرة التفاصيل، ونسأله تعالى أن يمدنا بعونه ولطفه وتوفيقه، وأن يجعلنا هادين مهتدين بمنه وكرمه وإحسانه.

القاعدة الأولى: في كيفية تلقي التفسير.

كل من سلك طريقًا وعمل عملًا، وأتاه من أبوابه وطرقه الموصلة إليه، فلا بد أن يفلح وينجح ويصل به إلى غايته، كما قال تعالى: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة: 189]).

الآن أنت تريد أن تحصل علم التفسير، فالقاعدة الأولى: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾، فإذا سلكت الطريق الصحيح وُفِّقتَ، أما لو أخذت من هنا ومن هنا وتتعرج لن تستطيع أن تحصل على التفسير، فهذه مسألة مهمة، فهناك منهج لعلم التفسير منضبط تمامًا، لتنظر ما هذا المنهج وتسلكه فستجد العلم.

قال -رَحِمَهُ اللهُ: (وكلما عظم المطلوب تأكد هذا الأمر، وتعين البحث التام عن أمثل وأقوم الطرق الموصلة إليه، ولا ريب أن ما نحن فيه هو أهم الأمور وأجلها، بل هو أساسها وأصلها.

فاعلم أن هذا القرآن العظيم أنزله الله لهداية الخلق وإرشادهم، وأنه في كل وقت وزمان ومكان يرشد إلى أهدى الأمور وأقومها ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: 9].

فعلى الناس أن يتلقوا معني كلام الله كما تلقاه الصحابة -رَضِيَ اللهُ عَنْهُم- فإنهم كانوا إذا قرأوا عشر آيات، أو أقل أو أكثر، لم يتجاوزوها حتى يعرفوا ويحققوا ما دلت عليه من الإيمان والعلم والعمل، فينزلونها على الأحوال الواقعة يؤمنون بما احتوت عليه من العقائد والأخبار، وينقادون لأوامرها ونواهيها، ويطبقونها على جميع ما يشهدون من الحوادث والوقائع الموجودة بهم وبغيرهم، ويحاسبون أنفسهم: هل هم قائمون بها أو مخلون بحقوقها ومطلوبها؟ وكيف الطريق إلى الثبات على الأمور النافعة، وتدارك ما نقص منها؟ وكيف التخلص من الأمور الضارة؟ فيهتدون بعلومه، ويتخلقون بأخلاقه وآدابه، ويعلمون أنه خطاب من عالم الغيب والشهادة موجه إليهم، ومطالبون بمعرفة معانيه، والعمل بما يقتضيه).

قوله: (فعلى الناس أن يتلقوا معني كلام الله كما تلقاه الصحابة -رَضِيَ اللهُ عَنْهُم) هذا فيصل بيننا وبين مَن وقع في البدع والضلالات، ومن وقع في اتباع الأحاديث المكذوبة والخرافات، فأنت إذا فهمت هذا جيدًا وامتلأ قلبك إيمانًا به هُديت، وهو أن نتلقى القرآن كما تلقاه الصحابة، يكون أمامك المثل الأعلى هم أصحاب النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، ومن منهجهم التدرج، فلا يستعجلون، فلا يحفظون القرآن دفعة واحدة ويُريدون العلم دفعةً واحدة، يعني في مجلس واحد أو في شهر يريد أن يختم كل شيء، فلا يُمكن هذا! حتى لو قُدِّر أن الإنسان سريع القراءة سريع الفهم سريع الحفظ سريع الإتقان؛ فهم خير منَّا، فلا نسلك مسلكًا غير مسلكهم، فكان مسلكهم عشر آيات يتدبرونها ويفهمون معانيها، ويعملون ويؤمنون، فيعد الفهم والتدبر إيمان واعتقاد تام بأن هذا حق، ثم عملٌ، قال: (لم يتجاوزوها حتى يعرفوا ويحققوا ما دلت عليه من الإيمان والعلم والعمل)، فتصير حياتهم تطبيق عملي لما قرءوه من كلام الله -عَزَّ وَجَلَّ- وهذا هو سبيل الصحابة.

ممكن واحد يحفظ القرآن وهو صغير السن، وهذا لا بأس به، لكن إذا أراد التفسير فإنه يتدبَّر ويتعلَّم على طريقة الصحابة، فلا تستعجل أولًا، ولكن شيئًا فشيئًا، فتأخذ من المفصل أو من أول البقرة عشر آيات عشر آيات، ثم تمضي بالعلم، هكذا مع مرور الوقت تحفظ وتعمل وتؤمن، فتجمع بين العلم والعمل.

قال -رَحِمَهُ اللهُ: (فمن سلك هذا الطريق الذي سلكوه، وجَدّ واجتهد في تدبر كلام الله، انفتح له الباب الأعظم في علم التفسير، وقويت معرفته واستنارت بصيرته، واستغنى بهذه الطريقة عن كثرة التكلفات، وعن البحوث الخارجية، وخصوصًا إذا كان قد أخذ من علوم العربية جانبًا قويًا، وكان له إلمام واهتمام بسيرة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وأحواله مع أوليائه وأعدائه، فإن ذلك أكبر عون على هذا المطلب.

ومتى علم العبد أن القرآن فيه تبيان كل شيء، وأنه كفيل بجميع المصالح مبين لها، حاث عليها، زاجر عن المضار كلها، وجعل هذه القاعدة نصب عينيه، ونزلها على كل واقع وحادث سابق أو لاحق، ظهر له عظم مواقعها وكثرة فوائدها وثمرتها).

قوله: (واستغنى بهذه الطريقة عن كثرة التكلفات، وعن البحوث الخارجية)، يريد التكلفات التي وقع فيها المبتدعة من الخوارج والشيعة والمعتزلة وأهل الكلام عمومًا؛ فهؤلاء وقعوا في تكلفات كثيرة جدًّا، لأنهم يريدون حمل القرآن على آرائهم الفاسدة، فصاروا يوسعون ويشققون الكلام حتى يثبتوا أنهم على حق، وهم على باطل.

ثم بيَّن أنك يكون عندك قسط كبير وجانب كبير من علوم اللغة العربية، فهذا معينٌ لك لفهم كتاب الله، فإذا كنت لا تتكلم باللغة العربية فتعلَّمها، فإن تعلمها لهذا الغرض من أعظمِ الأعمال الصالحة، ومن أجل الأمور التي توصلك إلى منازل المتقين، ولك عبرة وأسوة بأئمَّة السنة الذين هم في الأصل من العجم ولا ينطقون بالعربية، فتعلموا وتعلموا حتى صاروا أئمة في الدين بين المسلمين قاطبة عربهم وعجمهم.

الجانب الأول: وهو أول خطوة من الخطوات التي بدأوها: أنهم أتقنوا العربية نطقًا وقراءة وفهمًا ومخاطبة. فهذا مما يعينك على فهم كلام الله.

الجانب الثاني: تعلُّم المفردات في اللغة العربية، وتعلم النحو والإعراب، ولا يشترط أن تبلغ في ذلك المنتهى؛ بل يكفي أن تعرف القواعد التي تعينك على فهم الخطاب، وفهم السياق.

الجانب الثالث: تعلُّم سيرة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وأحواله من تاريخ ولادته عام الفيل، ومن وقت بعثته -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وما كان من الأمر في مكة قبل الهجرة، ثم الهجرة إلى مدينة الرسول -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ثم وفاته -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، والغزوات والأحداث، فهذه السيرة تعينك على فهمك للقرآن، فمثلًا سورة الأحزاب متى نزلت وعلى أي أمرٍ تبيِّنه؟، وكذلك سورة الأنفال نزلت في أي غزوة، وكذلك سورة آل عمران؟ فمقدمة سورة آل عمران نزلت لأجل نصارى نجران الذين قدموا وهم نصارى يريدون المحاجَّة والجدال بالباطل دفاعًا عن عقائدهم الفاسدة وإلقاءً للشبهات، فنزل صدر سورة آل عمران في الرد على هؤلاء النصارى، وبقية السورة يتعلق بغزوة أحد.

فمعرفتك بسيرة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مما يعينك على فهم القرآن.

قال -رَحِمَهُ اللهُ: (القاعدة الثانية: العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب.

وهذه القاعدة نافعة جدًا، بمراعاتها يحصل للعبد خير كثير وعلم غزير، وبإهمالها وعدم ملاحظتها يفوته علم كثير، ويقع الغلط والارتباك الخطير.

وهذا الأصل اتفق عليه المحققون من أهل الأصول وغيرهم، فمتى راعيت القاعدة حق الرعاية وعرفت أن ما قاله المفسرون من أسباب النزول إنما هو على سبيل المثال لتوضيح الألفاظ، وليست معاني الألفاظ والآيات مقصورةً عليها. فقولهم: نزلت في كذا وكذا، معناه: أن هذا مما يدخل فيها، ومن جملة ما يراد بها، فإن القرآن ـ كما تقدم ـ إنما نزل لهداية أول الأمة وآخرها، حيث تكون وأنى تكون.

والله تعالى قد أمرنا بالتفكر والتدبر لكتابه، فإذا تدبرنا الألفاظ العامة، وفهمنا أن معناها يتناول أشياء كثيرة، فلأي شيء نخرج بعض هذه المعاني، مع دخول ما هو مثلها ونظيرها فيها؟ ولهذا قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه " إذا سمعت الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فأرعها سمعك، فإنه إما خير تُؤمر به، وإما شر تُنهى عنه ".

فمتى مر بك خبر عن صفات الله وأسمائه، وعما يستحقه من الكمال، وما يتنزه عنه من النقص. فأثبت له جميع ذلك المعنى الكامل الذي أثبته سبحانه لنفسه ونزّهه عن كل ما نزه نفسه عنه، وكذلك إذا مر بك خبر عن رسله وكتبه واليوم الآخر، وعن جميع الأمور السابقة واللاحقة، فاجزم جزمًا لا شك فيه أنه حق على حقيقته، بل هو أعلى أنواع الحق والصدق، قيلا وحديثا.

وإذا أمر بشيء نظرت إلى معناه، وما يدخل فيه وما لا يدخل، وعلمت أن ذلك الأمر موجه إلى جميع الأمة، وكذلك في النهي.

ولهذا كانت معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله أصلَ كل الخير والفلاح، والجهل بذلك أصل كل الشر والخسران.

فمراعاة هذه القاعدة أكبر عون على معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله والقيام بها. والقرآن قد جمع أجل المعاني وأنفعها وأصدقها بأوضح الألفاظ وأحسنها كما قال تعالى: ﴿وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان:33]، يوضح ذلك ويبينه وينهج طريقته القاعدة الثالثة).

قال: (القاعدة الثانية: العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب)، يعني لا يختص الحكم بالشخص الذي نزلت لأجله الآية أو كان سببًا لنزولها.

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ \* الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ \* وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المجادلة: 1 - 3]، فهل هذا خاص بأوس بن الصامت -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؟

الجواب: لا، وإنما أوس بن الصامت هو السبب الذي لأجله نزلت هذه الآيات، لأنه ظاهر من زوجته خولة بنت ثعلبة -رَضِيَ اللهُ عَنْها-، فنقول: إن العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب.

ولا يُمكن إحصاء الأمثلة على هذه القاعدة، لأن الأمثلة كثيرة جدًّا.

مثال آخر: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: 36]، الخطاب للرسول -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فهل هذا خاص بالرسول -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

الجواب: لا، هذا عام.

كذلك قوله: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: 78]، الخطاب عام.

متى يكون الخطاب خاصًّا؟

إذا علمنا خصوصيَّته بدليلٍ آخر، مثل اختصاص النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بأمور خصَّه الله بها، مثل قوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾ [الإسراء: 79]، فالتهجد واجب على النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكنه سنة في حق أمته بالدليل الذي جاء في السنة، وهو الرجل الذي قال للنبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هل عليَّ غيرها -يقصد الفرائض- فقال النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا، إلا أن تطوَّع».

إذًا؛ الرجل الذي جاء وقال: إني فعلتُ مع امرأةٍ ما يفعله الرجل غير أني لم أجامعها، فانتظر وصلى الصبح مع النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ثم الظهر ثم العصر ثم المغرب ثم العشاء، ثم أنزل الله -عَزَّ وَجَلَّ- هذه الآية: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود: 114]، فهذه عامَّة.

ثم ذكر الشيخ مثالًا آخر، وهو عموم قول ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، فإذا سمعتَ هذا النداء -كما قال ابن مسعود: "فأرعه سمعك"، يعني: انتبه له جدًّا وتدبره وتأمل فيه، "فإما خير تؤمر أو شر تُنهى عنه".

مثال للأمر: قوله ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: 1]، ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: 119]، وهكذا.

مثال للنهي: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا﴾ [آل عمران: 130]، وقوله: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: 87].

فكلما سمعت ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فانتبه لها.

قوله: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: 34]، هذا نهي عن سلوك مسلكهم، يعني لا تفعلوا مثلهم، لأنه قال بعدها: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، وهكذا..

إذا صرنا نمر على الآيات ونفعل هكذا نستفيد فائدة عملية وعلمية.

وذكر الشيخ تدبر أسماء الله الحسنى وصفاته والخبر عنه -عَزَّ وَجَلَّ- والخبر عن اليوم الآخر، والخبر عن الرسل؛ تجـزم بأنه حق، بل هو أعلى أنواع الحق.

ومما يعينك على هذا أن تتذكر هذا الدعاء الذي كان يقوله الرسول -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في استفتاح صلاة الليل، فكان إذا كبَّر -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وقبل أن يقرأ الفاتحة يقول هذه الكلمات العظيمات: «اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومَن فيهن، ولك الحمد أنت قيوم السماوات والأرض ومَن فيهنَّ، ولك الحمد أنت ملك السماوات والأرض ومَن فيهن، ولك الحمد أنت الحق، ووعدك الحق، وقولك الحق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكَّلت، وإليكَ أنبتَ، وبك خاصمتَ، فاغفر لي ما قدَّمت، وما أخرت، وما أعلنت، وما أسررت، أنت إلهي لا إله إلا أنت ولا إله غيرك»، ثم يقرأ الفاتحة، فهذا استفتاح في صلاة الليل، فإذا مررت على القرآن بهذا المعنى ازداد يقينك وإيمانك.

قال -رَحِمَهُ اللهُ: (القاعدة الثالثة: الألف واللام الداخلة على الأوصاف وأسماء الأجناس تفيد الاستغراق بحسب ما دخلت عليه

وقد نص على ذلك أهل الأصول وأهل العربية، واتفق على اعتبار ذلك أهل العلم والإيمان).

الشيخ شرح هذا الكلام شرحًا واسعًا.

الألف واللام الداخلة على الأوصاف أو أسماء الأجناس تفيد الاستغراق بحسب ما دخلت عليه، وهذا أمر متفق عليه وما فيه نزاع، مثل قوله: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ [الأحزاب: 35]، فكل المسلمين موعودين بهذا الفضل، لأن "أل" تفيد الاستغراق.

إذا قلت: "الطلاب مطالبون بالاختبار" فتفيد جميع الطلاب بدون استثناء، يأتي طالب يقول أنا لا أدخل في "الطلاب" لأني متميز، فهذا خطأ، وهذا في كلام الناس؛ وأهل أصول الفقه وأهل العربية متفقون على هذا، وهكذا أهل التفسير.

ذكر الشيخ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ وقوله: ﴿وَالْعَصْرِ \* إِنَّ الْأِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر 1، 2]؛ فهذا يشمل جميع أنواع الإنسان، وفي الآية ما استثنى إلا المصلين، أو الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر.

ثم ذكر جملة من أسماء الله الحسنى، وذكر البر والتقوى والإثم والعدوان.

قال -رَحِمَهُ اللهُ: (وقد نبه النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أمته إلى هذه القاعدة، وأرشدهم إلى اعتبارها إذ علمهم أن يقولوا في التشهد في الصلاة: (السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين) فقال:

(فإنكم إذا قلتم ذلك فقد سلمتم على كل عبد صالح من أهل السماء والأرض) [رواه البخاري]، وأمثلتها في القرآن كثيرة جدًا).

الصحابة قبل أن يتعلموا من النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- التشهد الأول كانوا يقولون عبارات فيها شيء، فنبههم النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عليها وصححها لهم، وعلمهم التشهد الأول حفظًا تامًّا، فكانوا يقولون أول الأمر: "السلامُ على الله من عباده، السلام على النبي، السلام على أبي بكر، السلام على عمر، السلام على فلان..."، فقال لهم النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تقولوا: السلام على الله من عباده، فإن الله هو السلام ومنه السلام. وقولوا: التحيات لله والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. فإذا قلتم ذلك فقد سلمتم على كل عبد صالح من أهل السماء والأرض»، ما تحتاج أن تعددهم وتقول: جبريل، وميكائيل..، السلام على أبي بكر...، السلام على عمر...، السلام على فلان...؛ إذا قلت «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» شملتَ هؤلاء كلهم، وهذا يؤكد لنا أن "أل" في "الصالحين" تشمل كل أنواع الصالحين فهي للاستغراق ولا يخرج منه شيء.

ومثل لفظ الجلالة "الله"، فهو الذي له جميع معاني الألوهية، ولا يشارك الله أحد في معنًى من معاني الألوهية لا بشر ولا ملك.

فتنتبه أن لفظ الجلالة يدل على معنى العبودية والألوهية، فالله هو المستحق لذلك ولا يشاركه أحد، وهذا هو معنى الاستغراق، كل معاني الألوهية مختصَّة بالله سبحانه، فالولي لا يستحقها، والنبي لا يستحقها، الألوهية لرب العالمين فقط، وهذا من معاني التوحيد.

قال -رَحِمَهُ اللهُ: (القاعدة الرابعة: إذا وقعت النكرة في سياق النفي أو النهي أو الشرط أو الاستفهام دلت على العموم كقوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: 36]، فإنه نهى عن الشرك به في النيات، والأقوال والأفعال، وعن الشرك الأكبر، والأصغر والخفي، والجلي. فلا يجعل العبد لله ندًا ومشاركًا في شيء من ذلك.

ونظيرها قوله: ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ [البقرة: 22].

وقوله في وصف يوم القيامة: ﴿يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾ [الانفطار: 19]، يعم كل نفس، وأنها لا تملك شيئًا من الأشياء، لأي نفس أخرى، مهما كانت الصلة، لا إيصال شيء من المنافع، ولا دفع شيء من المضار.

وكقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: 107]، فكل ضر قدره الله على العبد ليس في استطاعة أحد من الخلق كائنا من كان كشفه بوجه من الوجوه.

ونهاية ما يقدر عليه المخلوق من الأسباب والأدوية: إنما هو جزء من أجزاء كثيرة داخلة في قضاء الله وقدره.

وقوله: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: 2] وقوله ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: 53] يشمل كل خير في العبد ويصيب العبد، وكل نعمة فيها حصول محبوب، أو دفع مكروه، فإن الله هو المنفرد بذلك وحده.

وقوله ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لا إِلَهَ إِلَّا هُو﴾ [فاطر: 3]، وإذا دخلت [من] صارت نصًا في العموم كهذه الآية: ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة:47] وقوله ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: 59]، ولها أمثلة كثيرة جدًا).

هذه قاعدة أصولية وقاعدة في التفسير مهمَّة جدًّا: إذا وقعت النكرة في سياق النهي أو النفي أو سياق الشرط أو الاستفهام؛ دلَّت على العموم.

أمثلة:

قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: 36]، فـ "لا" هنا للنهي، و"شيئًا" نكرة، فتعم أي شيء، فلا يجوز أن يُشرَك بالله أي شيء، وقد تتخيل أنت العموم في جانب ويفوتك جوانب، فالشيخ يُنبهك أن العموم يشمل كل الجوانب.

قد نقول: إن المراد بـ "شيئًا" أي مخلوق من الإنس أو الجن أو نبي أو ملك؛ فهذا عموم ما يستثنى منه شيء، فجميع المخلوقين يعتبرون "شيئًا".

وينبهك أيضًا على العموم في نوع الشرك، كالنية، والقول، والفعل والعمل؛ فهذا شيء معتبر، ويدخل فيه الشرك الأكبر والأصغر، والجلي والخفي، فصارت كلمة "شيئًا" تشمل عموم عظيم لكل الأشياء بجميع الاعتبارات، فالشرك أعظم الذنوب.

ونظيره قول: ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ [البقرة: 22].

وذكر الآية في وصف يوم القيامة: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ \* ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ \* يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الانفطار: 17- 19]، وهذا مما تُفسَّر به سورة الفاتحة، فسورة الفاتحة فيها ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: 4]؛ إذًا المالك الحقيقي هو الله -سبحانه وتعالى- فهو الذي يملك كل شيء حتى الشفاعة، قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: 255]، فإذا أردنا شفاعة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فنطلبها ممن يملكها وهو الله، ونقول: اللهم ارزقنا شفاعة نبيك -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

انظر هذه الآية: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الانفطار: 19]، ثلاثة مواضع فيها نكرة في سياق النفي:

الأول: ﴿نَفْسٌ﴾ الأولى.

الثاني: ﴿لِنَفْسٍ﴾.

الثالث: ﴿شَيْئًا﴾.

كل هذه الثلاث شاملةٌ لجميع أفرادها، عمومها تام ولا يستثنى منه شيء، حتى الرسول -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لا يملكها، ولهذا قال وهو الصادق المصدوق -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئتِ، لا أغني عنكِ من الله شيئًا».

وهذا نرد به على مَن يستغيث بغير الله ويطلب من الأموات الشفاعة، فنرد عليه بهذه الآية وبهذا العموم، ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾، إذًا ألجأ إلى الله أن يُنجيني يوم القيامة ويعافيني ويدخلني في رحمته يوم القيامة.

ثم ذكر الضر في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: 107]، فـ "الضر والخير" هنا نكرة في سياق الشرط، فـ "إنْ" أداة شرط.

قوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: 2] وقوله ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: 53]، وقوله ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لا إِلَهَ إِلَّا هُو﴾ [فاطر: 3]، والأمثلة كثيرة جدًّا.

قال -رَحِمَهُ اللهُ: (القاعدة الخامسة: المقرر أن المفرد المضاف يفيد العموم كما يفيد ذلك اسم الجمع.

فكما أن قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ [النساء: 23] إلى آخرها يشمل كل أم انتسبت إليها، وإن علت. وكل بنت انتسبت إليك وإن نزلت ـ إلى آخر المذكورات ـ فكذلك قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:11] فإنها تشمل النعم الدينية والدنيوية، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:162] فإنها تعم الصلوات كلها، والأنساك كلها، وجميع ما العبد فيه وعليه في حياته ومماته، الجميع من الله فضلًا وإحسانًا، وأنك قد أتيت ما أتيت منه وأوقعته وأخلصته لله وحده، لا شريك له.

وقوله: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلّىً﴾ [البقرة: 125] على أحد القولين: إنه يشمل جميع مقاماته في مشاعر الحج: اتخذوه معبدًا.

وأصْرَح من هذا قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: 123]، وهذا شامل لكل ما هو عليه من التوحيد والإخلاص لله تعالى، والقيام بحق العبودية.

وأعم من ذلك وأشمل: قوله تعالى لما ذكر الأنبياء: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: 90] فأمره الله أن يقتدي بجميع ما عليه المرسلون من الهدى، الذي هو العلوم النافعة والأخلاق الزاكية، والأعمال الصالحة، والهدى المستقيم. وهذه الآية أحد الأدلة على الأصل المعروف: أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه وشرع الأنبياء السابقين هو هداهم في أصول الدين وفروعه، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: 153]، وهذا يعم جميع ما شرعه لعباده، فعلًا وتركًا، اعتقادًا وانقيادًا، وأضافه إلى نفسه في هذه الآية لكونه هو الذي نصبه لعباده، كما أضافه إلى الذين أنعم عليهم في قوله ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: 7] لكونهم هم السالكين له. فصراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ما اتصفوا به من العلوم والأخلاق والأوصاف والأعمال وكذلك قوله ﴿وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: 110] يدخل في ذلك جميع العبادات الظاهرة والباطنة، العبادات الاعتقادية والعملية، كما أن وصف الله لرسوله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بالعبودية المضافة إلى الله كقوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الاسراء: 1] وكقوله ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ [البقرة:23] وقوله ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: 1] تدل على أنه وفَّي جميع مقامات العبودية، حيث نال أشرف المقامات بتوفيته لجميع مقامات العبودية، وقوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: 36] فكلما كان العبد أقوم بحقوق العبودية كانت كفاية الله له أكمل وأتم، وما نقص منها نقص من الكفاية بحسبه.

وقوله: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر:50]

وقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل:40] يشمل جميع أوامره القدرية الكونية. وهذا في القرآن شيء كثير).

هذه القاعدة الخامسة، وهي أنَّ المفرد المضاف يفيد العموم كما يفيد ذلك اسم الجمع.

قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ [النساء: 23]، الأم الأولى المقاربة التي ولدتك، هل تخرج الجدة؟ لا، وإنما كل أم ولو علت حرام عليك، وكذلك كل بنت لك وإن نزلت، فالتحريم يشمل الفروع والأصول.

قوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:11]، فـ "نعمة" مفرد مضاف إلى "ربك" فتفيد العموم، يعني: جميع النعم.

وهذه مسألة إذا فهمتها جيدًا فهمت معاني كثيرة في القرآن، وهذا من دلالات اللغة العربية أيضًا.

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:162]، فـ "صلاتي" مفرد مضاف، تفيد أن كل الصلوات التي تؤديها يجب أن تكون لله رب العالمين.

وقوله: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلّىً﴾ [البقرة: 125]، فيها تفسيران:

الأول: المقام المعروف بقرب الكعبة، والنبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كان يصلي ركعتين خلف هذا المقام، ويقرأ في الأولى الفاتحة والكافرون، وفي الثانية الفاتحة وقل هو الله أحد.

الثاني: المقام هو المناسك، كمقامه يوم التروية ويوم عرفة وفي الجمع ليلة المزدلفة وفي مِنى أيام التشريق، ومكان رمي الجمار التي رماها إبراهيم.

وقوله ﴿مُصَلَّى﴾ يعني مكان للعبادة، لأن الصلاة تطلق ويُراد بها الدعاء والعبادة، والنبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كان يدعو الله -عَزَّ وَجَلَّ- في عرفات حتى تغرب الشمس، وفي ليلة الجمع من بعد صلاة الفجر حتى يسفر جدًّا، وفي أثناء رمي الجمار فإنه يرمي ولا يقف عندها.

وكذلك من مقام إبراهيم: القيام على الصفا والمروة، فكان النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يدعو.

إذًا؛ كلمة "مقام" على التفسير الثاني تفيد جميع المقامات -أو جميع المناسك- التي فعلها إبراهيم، وقدوتنا في ذلك رسول الله محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وهو الذي ائتمَّ بإبراهيم.

قوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: 123]، فـ "ملة" مفرد، ولما أضيفت إلى "إبراهيم" شملت جميع الأمور التي كان عليها إبراهيم من الاعتقاد والتوحيد.

قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: 90]، فـ "هدى" مفرد أضيف إلى "هم" يعني الأنبياء والرسل، ويفيد العموم.

والشيخ أعطانا فائدة جانبيَّة مهمَّة، وهي أن هذا الدليل حجَّة لأهل العلم الذين قالوا: "شرعُ مَن قبلنا شرعٌ لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه"، كيف نعرف شرع مَن قبلنا؟

الجواب: نعرفه بما جاء في كتاب الله وفي سنة الرسول -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فإذا ذكر الله -عَزَّ وَجَلَّ- عن أنبيائه أو عن مَن قبلنا من الأمم أمرًا وحدثًا وفيه مسألة تتعلق بالدين أو بمسائل الأعمال؛ فيكون شرع لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه.

ثم ذكر الشيخ أمثلة أخرى، مثل وصف النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بأنه عبد لله في قوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الاسراء: 1]، وهذا في مقام الإسراء، وكقوله ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ [البقرة:23] في مقام التحدي، وقوله ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: 1]، وهذا في مقام إنزال الفرقان، وقوله: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: 19] في مقام الدعوة إلى الله؛ فهذه هي أشرف مقامات النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

- الإسراء والمعراج.

- الإيحاء.

- التحدي لجميع أهل الأرض. ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾، ما قال "نبينا أو رسولنا" وهو نبيه ورسوله؛ ولكن لما ذكر هذا الوصف هنا "عبد" مفرد مضاف استفدنا منه العموم، يعني أن الرسول -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أكرمه الله بأعلى وأشرف مقامات العبودية لله رب العالمين، فهو أشرف الخلق الذين قاموا بعبادة الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فإنه وفَّى بجميع هذه المقامات، ومن ذلك الحماية والكفاية والوقاية، قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: 36]، فالله صلِّ وسلم وبارك عليه.

سؤال:

في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: 34]، نعرف أن البشارة للخير، فلماذا ذكرها في سياق العذاب؟

البشارة الأغلب والأعم أن تكون على الخير، لكن تأتي أيضًا في معنى الشر عقوبةً وتقريعًا، وكذلك البشارة تسمى "بشارة" لأنها تؤثِّر في بشرة الإنسان، وأول ما يُبلَّغ الخبر يظهر على وجهه أثر هذا الخبر إن كان حسنًا سُرَّ وانبسطَ، وإن كان سيئًا عبسَ واكفهرَّ، ولهذا فإن البشارة تأتي في الأغلب على الأمور الطيبة السَّارة، ولكنها تأتي أيضًا في لغة العرب وفي القرآن لأمور التي هي شر، لأنها تلامس البشرة.

قال -رَحِمَهُ اللهُ: (القاعدة السادسة: في طريقة القرآن في تقرير التوحيد ونفي ضده.

القرآن كله لتقرير التوحيد ونفي ضده، وأكثر الآيات يقرر الله فيها توحيد الألوهية، وإخلاص العبادة لله وحده، لا شريك له، ويخبر أن جميع الرسل إنما أرسلت تدعوا قومها إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا، وأن الله تعالى إنما خلق الجن والإنس ليعبدوه، وأن الكتب والرسل بل الفطر والعقول السليمة كلها اتفقت على هذا الأصل، الذي هو أصل الأصول كلها، وأن من لم يَدِنْ بهذا الدين الذي هو إخلاص العبادة والقلب والعمل لله وحده فعمله باطل ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: 65] ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 88]، ويدعوا العباد إلى ما تقرر في فطرهم وعقولهم من أن الله المنفرد بالخلق والتدبير والمنفرد بالنعم الظاهرة والباطنة: هو الذي يستحق العبادة وحده، ولا ينبغي أن يكون شيء منها لغيره، وأن سائر الخلق ليس عندهم أي قدرة على خلق، ولا نفع، ولا دفع ضر، عن أنفسهم فضلا عن أن يغنوا عن أحد غيرهم من الله شيئا.

ويدعوهم أيضًا إلى هذا الأصل بما يَتَمَدَّح به، ويُثني على نفسه الكريمة، من تفرده بصفات العظمة والمجد، والجلال والكمال، وأن من له هذا الكمال المطلق الذي لا يشاركه فيه مشارك: أحق من أُخلصت له الأعمال الظاهرة والباطنة.

ويقرر هذا التوحيد بأنه هو الحاكم وحده، فلا يحكم غيره شرعًا ولا جزاء ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [يوسف: 40].

وتارة يقرر هذا بذكر محاسن التوحيد، وأنه الدين الوحيد الواجب شرعًا وعقلًا وفطرة، على جميع العبيد، وبذكر مساوئ الشرك وقبحه، واختلال عقول أصحابه بعد اختلال أديانهم، وتقليب أفئدتهم، وكونهم أضل من الأنعام سبيلا.

وتارة يدعو إليه بذكر ما رتب عليه من الجزاء الحسن في الدنيا والآخرة، والحياة الطيبة في الدور الثلاث، وما رتب على ضده من العقوبات العاجلة والآجلة، وكيف كانت عواقب المشركين أسوأ العواقب وشرها.

وبالجملة: فكل خير عاجل وآجل، فإنه من ثمرات التوحيد، وكل شر عاجل وآجل، فإنه من ثمرات الشرك والله أعلم).

هذا كلام طيب، وهذه القاعدة ينبغي أن نهتمَّ بها، ولو فكرتَ أنتَ في كل ختمةٍ تختم بها القرآن أنه كل ما مرَّ عليك مسألة تتعلق بالتوحيد أن تقيد الموضع في ورقة، بدأ من سورة الفاتحة، ثم سورة البقرة، بحسب ما يفتح الله به عليك، وإلا فأهل العلم يقولون: كل آية تدل على التوحيد من أوجه متعددة، فأنت سجِّل ما فاح الله به عليك، واكتب التاريخ، ثم في السنة القادمة تراجع ما كتبته، وسوف تفرح بنعمة الله عليك وتزيد من الخير، وهكذا في مواضع كثيرة جدًّا تمر عليها تقديمها.

فإذا كان من نتيجة درسنا هذا اليوم أن نهتم بهذا الموضوع غاية الاهتمام؛ فكفى بذلك ثمرةً وفائدةً لنا.

والله إذا استطعنا أن خرج من الدرس بأننا نتدبَّر معاني التوحيد في القرآن الكريم وأن نقف عندها فكفى بهذا شرفًا وفائدة وثمرة لنا، والموفق مَن وفقه الله.

والشيخ كلامه واضح جدًّا في هذه المسألة، وذكر هنا مجموعة من المسائل لا يقصد الحصر، فيقول: (ويخبر أن جميع الرسل إنما أرسلت تدعوا قومها إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا)، هذا المعنى يمر عليك في القرآن في كم موضع؟ يعني مثلًا نوح وما بعده من الرسل ماذا يقولون لقومهم؟

كل موضع من هذه المواضع دليل على التوحيد.

قال: (وأن الله تعالى إنما خلق الجن والإنس ليعبدوه)، وهذا واضح في سورة الذاريات.

قال: (وأن الكتب والرسل بل الفطر والعقول السليمة كلها اتفقت على هذا الأصل)، الكتب كلها والرسل كلها اتفقت على هذا الأصل. أين مرَّ معنا في القرآن.

الجواب: قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 25].

ومع ظهور هذا الأصل إلا أن علماء الكلام -هدى الله الأحياء منهم، أما مَن مات فنحذر من طريقتهم- غفلوا عن هذا الأصل الكبير، وصار عندهم غاية التوحيد ومنتهاه الإقرار بأن الله الخالق فقط، وهذا خطأ كبير زلَّت به أقدامهم، وضلَّت به أفهامهم، وصارَ من نتائج هذا الخطأ الخطير: أن العبادات التي تصرف لغير الله ما دام أصحابها يعتقدون أن الخالق هو الله لا تضرهم، فالعبادات الشركيَّة التي يتقربون بها إلى الأموات صار هؤلاء المتكلمون من علماء يقولون: لا تضر هذه العبادات ولا تؤرث في الدين ولا تؤثر في العقيدة ولا تخرج من الملة؛ فصار ضررهم عظيمًا على الأمة!

قال الشيخ: (وأن من لم يَدِنْ بهذا الدين الذي هو إخلاص العبادة والقلب والعمل لله وحده فعمله باطل ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: 65] ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 88]، ويدعوا العباد إلى ما تقرر في فطرهم وعقولهم)، يعني مسألة الإقرار بالخالق مسألة متقررة في الفطر، ما تحتاج تكلُّفات أهل الكلام.

فانتبهوا أيها الإخوة لهذا ونبهوا إخوانكم! ما الذي جعل أهل الكلام يصنعون هذا الصنيع؟

الجهم بن صفوان أولهم ثم مَن بعده من المعتزلة قابلوا ملاحدة وجادلوا ملاحدة وليس معهم علم بالكتاب والسنة، ولم يعرفوا أدلة الحق والبراهين الناصعة، فقام الملاحدة يوردون عليهم شبهات في إنكار الخالق، فصار هدفهم إثبات وجود الخالق فقط! وظنوا أن بهذا الأمر يتم الدين! فصار الجهم بن صفوان يناظر السُّمانيَّة -وهي طائفة هندية وثنية تنكر ما سوى المحسوسات حتى البلدان البعيدة عنهم ينكرونها- وهؤلاء الرد عليهم أسهل ما يكون، ولكن هكذا ضل الرجل وأضل خلقًا بعده.

وهكذا المعتزلة قابلوا بعض الملاحدة، فوضعوا قواعد كلاميَّة استفادوها من الفلاسفة وهذَّبوها ليردُّوا على الملاحدة، فلا للإسلام نصروا ولا للعدو كسروا، ولو أنهم هُدوا إلى طريقة القرآن الذي أقام الله به الحجَّة على جميع أنواع الكفرة ملاحدتهم وغير ملاحدتهم، فالقرآن حجَّةٌ عليهم أجمعين، وفيه الرد عليهم كلهم، ولكنهم تركوا طريقة القرآن، ولهذا فمن أنفع ما يكون لطالب العلم أن يتدبَّر هذه المواضع في القرآن العظيم، فإنها إثباتٌ لاستحقاق الله للعبادة، وردٌّ على المشركين، وردٌّ على الملاحدة المكذبين. وذكر الشيخ عدَّة أمثلة في هذا المعنى.

قوله: (فكل خير عاجل وآجل، فإنه من ثمرات التوحيد).

الخيرات التي في الدنيا مثل: الأمن، الصحة، الهداية للصواب في الأفعال والأقوال، أشياء كثيرة لا يُمكن أن نحصيها.

و"آجل" يعني في مستقبل حياتنا أو بعدَ مماتنا، أثناء الموت عند السكرات تخرج أرواحنا، وفي البرزخ ويوم القيامة، وبعد ذلك دخول الجنة وهو الخير العظيم الذي لا شيء أعظم منه.

كل هذا من ثمرات التوحيد عاجل وآجل.

وقوله: (وكل شر عاجل وآجل، فإنه من ثمرات الشرك والله أعلم)، عاجل: يعني في الدنيا من الفتن والضلال والشر الذي يحصل للناس بسبب الشرك، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: 96]، أخذناهم: أي عاقبناهم.

المسألة السابعة:

هذه القاعدة ما أدري كيف يُمكن أن نشرحها، لأنها يُمكن أن تأخذ من اليوم للغد، فأنا أعتبر هذه المسألة واجب عليك أن تركز فيها، فالشيخ لخص لك أدلة نبوة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وأدلة النبوة كثيرة جدًّا كما أن أدلة الخالق كثيرة جدًّا، والشيخ حاول يلخصها، فكل جملة تهتم بها وحاول تركز فيها.

قال -رَحِمَهُ اللهُ: (القاعدة السابعة: في طريقة القرآن في تقرير نبوة محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

هذا الأصل الكبير: قرره الله في كتابه بالطرق المتنوعة التي يعرف بها كمال صدقه -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فأخبر أنه صدق المرسلين، ودعا إلى ما دعوا إليه، وأن جميع المحاسن التي في الأنبياء في نبينا محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وما نُزِّهوا عنه من النقائص والعيوب، فرسولنا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أولاهم وأحقهم بهذا التنزيه، وأن شريعته مهيمنة على جميع الشرائع، وكتابه مهيمن على كل الكتب. فجميع محاسن الأديان والكتب قد جمعها الله في هذا الكتاب وهذا الدين، وفاق عليها بمحاسن وأوصاف لم توجد في غيره).

دلائل نبوة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- دلائل مشاهدَة شاهدها الصحابة والناس جميعًا، وتسمى دلائل حسيَّة، مثل نبع الماء وتكثير الطعام وانقياد الشجر، وتسليم الحصا والشجر على النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وغير ذلك كثير جدًّا من آلاف الأدلة رآها الناس.

كذلك دلائل معنوية، وهذه أقوى وأكثر انتشارًا وأثرًا، مثل الدليل الذي قام في قلب خديجة بنت خويلد -رَضِيَ اللهُ عَنْها- لما أخبرها النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أنه جاءه الوحي وخاف، فقالت: "كلا والله، لا يخزيك الله أبدًا"، فهذا دليل معنوي، فهي لم ترَ جبريل ولم ترَ آية معجزة، ولكنها علمت أن هذا حق، فالله -عَزَّ وَجَلَّ- يُقيم الأدلة، وهذا من رحمة الله، فكل ما احتجنا إلى الشيء فمن الرحمة أن ييسره الله، ولذلك الآن نحن نحتاج إلى الهواء وإلى الماء، ونحتاج إلى الطعام، ونحتاج إلى اللباس، أيضًا نحتاج إلى المراكب، وأيها أكثر حاجة تجدها أكثر بذلًا والله -عَزَّ وَجَلَّ- ييسرها للعباد، فأكثرها حاجة هو الهواء، فالهواء في كل مكان للخلائق كلهم، وحاجتنا للماء أكثر من الطعام، تجد أن الماء كثرته أكثر من الأطعمة، وتجد الأطعمة أسبابها من الزروع وغيرها من الألبسة، فالله -عَزَّ وَجَلَّ- يسرها للعباد، ولكن الألبسة أقل من الأطعمة، وإذا نظرت للباس والمراكب وجدت أن المراكب أقل والألبسة أكثر، فكان من قبل الإبل والحمير والبغال، والآن السيارات، فإذا قارنتَ بين هذا وجدت أن الله -عَزَّ وَجَلَّ- رحيم بعباده.

ومما يحتاجه العباد: معرفتهم بخالقهم، ومعرفتهم بنبيه الذي أرسله إليهم، ولهذا أقام الله -عَزَّ وَجَلَّ- من الأدلة ونصب من البراهين ما به يعرفون خالقهم، وهذه أكثر ما يُمكن.

وفي كل شيءٍ له آية تدل على أنه واحد \*\*..................

ودلائل نبوة نبيه -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كذلك لها كثرة عظيمة جدًّا، ولا ينبغي لطالب العلم أن تفوت عليه هذه الأمور، فإنها من أعظم أسباب الدعوة إلى الإسلام، ومن أعظم أسباب ثبات المسلمين عند الهجمات الإلحاديَّة والنصرانيَّة واليهوديَّة وغيرها، فدلائل نبوة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كثيرة جدًّا، فالمعنوية متنوعة كثيرة، هرقل ملك الروم سأل أبا سفيان أحد عشر سؤالًا، كل سؤال دليل من دلائل النبوة، وورقة بن نوفل لم يرَ معجزات أو آيات مشاهَدة، إنما سمعوا يقول كذا وكذا.

الشيخ هنا يذكر لك بعض الأجناس، وكل جنس تحته أنواع، والنوع تحته أفراد كثيرة؛ قال: (فأخبر أنه صدق المرسلين)، يعني ما جاء به الرسول -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- هو مصدقٌ لما في الكتب السابقة ولما جاءت به الرسل.

قال: (وأن جميع المحاسن التي في الأنبياء في نبينا محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وما نُزِّهوا عنه من النقائص والعيوب)، جميع الأمور التي نُزِّهوا عنها كالزنا والعقوق والسرقة والقتل.

قال: (وأن شريعته مهيمنة على جميع الشرائع، وكتابه مهيمن على كل الكتب. فجميع محاسن الأديان والكتب قد جمعها الله في هذا الكتاب وهذا الدين)، فجميع محاسن الأديان قد جُمعت في دين الإسلام -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: (وفاق عليها بمحاسن وأوصاف لم توجد في غيره).

هذا ليس دليلًا واحدًا ولا نوعًا واحدًا؛ هذا اسمه: جنسٌ من الأدلة، يدخل تحته أنواع وتفاصيل كثيرة مذكورة في القرآن، كلها تدل على نبوته -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وأن هذا مختصٌّ به، لم يأتِ أحدٌ بمثله، فيعلم العاقل المتدبر أن هذا هو رسول الله حقًّا.

قال -رَحِمَهُ اللهُ: (وقرر نبوته بأنه أمي لا يكتب ولا يقرأ، ولا جالس أحدًا من أهل العلم بالكتب السابقة، بل لم يَفْجَأ الناس إلا وقد جاءهم بهذا الكتاب الذي لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ما أَتوا ولا قَدِروا، ولا هو في استطاعتهم ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، وأنه محال مع هذا أن يكون من تلقاء نفسه، أو أن يكون قد تقوَّله على ربه، أو أن يكون على الغيب ظنينًا.

وأعاد القرآن وأبدى في هذا النوع، وقرر ذلك بأنه يخبر بقصص الأنبياء السابقين مطولة على جميع الواقع، الذي لا يستريب فيه أحد، ثم يخبر تعالى: أنه ليس له طريق ولا وصول إلى هذا إلا بما آتاه الله من الوحي، كمثل قوله تعالى لما ذكر قصة موسى مطولة ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ﴾ [القصص: 44] ولما ذكر قصة يوسف وإخوته مطولة قال: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف:102].

فهذه الأمور والإخبارات المفصلة التي يفصلها الرسول -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بما أوحي إليه تفصيلًا، صحح به أكثر الأخبار والحوادث التي كانت في كتب أهل الكتاب محرفة ومشوهة بما أضافوا إليها من خرافات وأساطير، حتى ما يتعلق منها بعيسى وأمه وولادتهما ونشأتهما، وبموسى وولادته ونشأته، كل ذلك وغيره لم يكن يعرفه أهل الكتاب على حقيقته حتى جاء القرآن، فقص ذلك على ما وقع وحصل، مما أدهش أهل الكتاب وغيرهم، وأخرس ألسنتهم حتى لم يقدر أحد منهم ممن كان في وقته، ولا ممن كانوا بعد ذلك، أن يكذبوا بشيء منها، فكان ذلك من أكبر الأدلة على أنه رسول الله حقًا).

قرَّر الله -عَزَّ وَجَلَّ- نبوة نبينا -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بأمور أخرى غير ما سبق، الآن سنأتي إلى جنس آخر يدخل تحته أنواع، وهو أن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أمي لا يقرأ ولا يكتب -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وهذا أمرٌ معروف مجمعٌ عليه عند الناس كلها، ومذكور في القرآن، وهذا ليس نقصًا في معلوماته وعقله؛ بل هو أكمل الناس عقلًا وعلمًا وفضلًا، ولكنه لأمرٍ أراده الله -عَزَّ وَجَلَّ- وهو أن يُقيم الحجَّة، يعرفون مدخله ومخرجه، يعيش بينهم أربعين سنة، وُلد عام الفيل، وعاش بين أناسٍ مشركين، لهم شأن بين القبائل، ولمَّا شبَّ وثقوا به وسموه الصادق الأمين، يعرفون أنه لا يقرأ ولا يكتب، ويعرفون فضله وتمام عقله وحسن تصرفه، ويثقون به إذا نشبت النزاعات بينهم، فمباشرة وبدون سابق تعلم وبدون سابق دراسة وبدون سابق تلقي عن آخرين يأتيهم بهذا العلم الذي ليس له نظيرٌ في الدنيا، يأتيهم بهذا الوحي من الله تعالى، فلا يوجد نظير لهذا القرآن، فاجأهم به، نزل عليه الوحي وتلاه عليهم؛ فهذا أكبر دليل على أنه رسول الله حقًّا، وأن هذا من عند الله وليس من تلقاء نفسه، فاتَّهموه وقالوا أنت تتلقى من شخص نصراني، فقال الله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: 103]، فأنتم تقولون أنه يأخذ من واحد من النصارى، فالذي تقولون عنه إنه من النصارى هو لا يتكلم بالعربية، فكيف يأتي بهذا العلم العظيم؟!

قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: 48]، الحكمة في أنه أمي لا يقرأ ولا يكتب حتى تكون الحجَّة تامَّة وواضحة، قال -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ أهل الحق لا يرتابون حتى لو كان يقرأ ويكتب، ولكن هذا من إقامة الله الحجج المتتالية على أهل الأرض، فهم يعرفون أنك ما تقرأ.

وكان أكمل الناس عقلًا -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وأحسنهم فهمًا، قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: 75]، فهو صفوة البشر -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، ولكن لحكمة بالغة كان أميًا.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (15) قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: 15، 16]، فقبل أن يأتيني الوحي لابثٌ فيكم وتعرفونني تمامًا، لو كان هذا من عندي لسمعتم كلمات مني، أما أن آتيكم به فجأة فهذا دليل على أنه من عند الله، فإذا قلتم أنه من الكهنة فهؤلاء كهانكم اجمعوهم من أولهم لآخرهم وائتوا بآيةٍ واحدة، وهؤلاء سحرتكم اجمعوهم من أولهم لآخرهم وائتوا بآية واحدة، بل جنُّكم وإنسكم وأهل الأرض كلكم اجتمعوا على أن تأتوا بآيةٍ واحدة؛ ما تستطيعون! فهذا من عند ربي وليس من عندي، وليس من تلقاء نفسي.

فهذه حجَّة عظيمة، وآية باهرة، وحجَّة ساطعة قاطعة ظاهرة بيِّنة، هذا المعنى تكرر في القرآن، والشيخ أورد آيات كآية القصص لما ذكر الله -عَزَّ وَجَلَّ- قصة موسى، فمن من المخلوقين يأتي بهذا الخبر عن موسى أنه ذهب إلى الطور وكلمه الله -عَزَّ وَجَلَّ- هناك؟! قال الله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (44) وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (45) وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ [القصص: 44 – 46].

وقال تعالى: ﴿وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون﴾ [آل عمران: 44]، وفي سورة هود: ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾ [هود: 49]، وفي سورة يوسف: ﴿وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون﴾ [يوسف: 102].

فهذا العلم العظيم وهذه التفاصيل الشديدة الدقيقة البيِّنة الباهرة من أين لك بها؟

فهذه من عند الله -عَزَّ وَجَلَّ-، لا جن ولا إنس يملكها ولا يعلمها إلا الله، فالله عو الذي أوحاها إليك، فكل هذا نوع من الأدلة يدخل تحته أفراد كثيرة تدل على نبوة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: 40]، وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: 56]، ولهذا اسألوا الله الهداية، قال الله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: 105]، وقال: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: 101].

قال -رَحِمَهُ اللهُ: (وتارة يقرر نبوته بكمال حكمة الله، وتمام قدرته، وأن تأييده لرسوله ونصره على أعدائه، وتمكينه في الأرض هو مقتضى حكمةِ ورحمةِ العزيز الحكيم، وأن من قدح في رسالته فقد قدح في حكمة الله وفي قدرته. وفي رحمته، بل وفي ربوبيته.

وكذلك نصره وتأييده الباهر لهذا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الأمم الذين هم أقوى أهل الأرض من آيات رسالته، وأدلة توحيده، كما هو ظاهر للمتأملين).

هذان نوعان:

الأول: يُقرِّر نبوته بكمال حكمة الله وتمام قدرته. وهذا دليل مستقل، فكمال حكمة الله وتمام قدرته أمر ظاهر لجميع المخلوقين، لأن الخلق يرون السماوات ويرون الأرض، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: 12]، إذًا علمك بأن الله قدير وأنه محيط بكل شيء علمًا ناتج عن رؤيتك لمخلوقاته، وهذا دليل عقلي دلَّ عليه القرآن ونبه عليه فقال: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين: 8]، وقال: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: 88]؛ فإذا كان هذا صنعه وهذا خلقه؛ فهل يترك رجلًا يفتري عليه ويُمكِّنه ويزيده من التَّمكين وينشر دين؟! لا يمكن!

إذًا؛ هذا الذي خرج وقال إنه رسوله صادق -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وقد نصر الله دينه، وهذا من حكمة الله.

الثاني: التأييد والنصر، وهذا دليل آخر.

ننظر! النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في مكة كان عدد الصحابة الذين أسلموا أول الأمر: خديجة، ثم أبو بكر، ثم عمر، ثم أفراد يُعدون على الأصابع، ما يتجاوزون المائة أول ثلاث سنوات، بل قيل إن عددهم ما تجاوز الثلاث مائة لما هاجروا أو أكثر من ذلك بقليل، فهو عدد قليل جدًّا، وهذا الذي قال إنه رسول الله محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وهو رسول الله، لم يكن معه مال كثير، بل كان من أشد الناس فقرًا، قال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ [الضحى: 8]، حتى وهو في المدينة كان في فقرٍ شديد، ففي غزوة الأحزاب ربط على بطنه حجرين من الجوع الشديد، وأفضل الناس الذين كانوا معه كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي كانوا في شدِّة عظيمة، والذي عنده منهم مال قليل جدًّا، والبقية فقراء فقر شديد، كان أبو هريرة يخرج من بيته حتى يسقط ويغشى عليه من الجوع، يقول: "آتي إلى أبي بكر فأسأله، والله ما أريد السؤال، وإنما أريد أن يدعوني ويضيفني، ولا يضيفني، ثم أذهب" والله أعلم أن السبب أن أبا بكر ليس عنده شيء وليس تلكؤًا منه -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، ثم أتى إلى عمر يسأله ولا يريد السؤال، وإنما أراد أن يضيفه، والذي يظهر أيضًا -والله أعلم- أن عمرًا لم يقل ذلك له، لأن عمر ليس عده شيء، حتى جاء إلى النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فدعاه فإذا بحلبٍ من أحد جيران النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من الأنصار، ففرح أبو هريرة أن يشرب هذا.

وهذا الحديث من آيات النبوة، فقال النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ادع لي أهل الصفة كلهم»، وكانوا سبعين رجلًا من الصحابة. يقول أبو هريرة: "لم أجد بدًّا من ذلك"، فأبو هريرة كان يسقط من الجوع ويريد أن يشرب شربة أو شربتين، فدعا أهل الصفة فقال النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لأبي هريرة: «أعطهم»، فناولتهم، فكل واحد منهم يشرب حتى يروى، فمرَّ على السبعين فشربوا كلهم عن آخرهم حتى شبعوا، ثم أعطاه أبا هريرة فقال: «اشرب يا أبا هريرة»، فقال أبو هريرة: "أنت اشرب يا رسول الله"، فقال النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا، اشرب يا أبا هريرة» قال أبو هريرة: فشربتُ حتى شبعت. ثم قال -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اشرب»، فشربتُ حتى شبعت. ثم قال: «اشرب»، فقلت: والذي بعثك بالحق لا أجدُ له مسلكًا"، ثم أخذ الرسول -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الفضلة فسمى الله وشرب ما بقي، فاللهم صلِّ وسلم عليه.

كل هذا يدل على قلَّة ذات اليد، فما كان عندهم شيئًا، تأتي المسكينة إلى بيت النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فتسأل، تقول عائشة: "أبحث في البيت فلم أجد إلا ثلاث تمرات"، وهذا أشرف خلق الله!

ومع ذلك انظر للتأييد الرباني والنصر، فينصره الله ويُمكِّن له، ويفتح الله له البلدان، ويهزم الله -عَزَّ وَجَلَّ- أعتى الأمم، وأشد وأشرس الناس في زمنه وهم قريش واليهود والقبائل العربية كغطفان وغيرها، كلهم نصره الله عليهم، ونصر دينه وأظهر دينه؛ فكل هذا يدل نبوته، ودينه باقٍ إلى يوم القيامة والحمدُ لله.

قال: (وأن من قدح في رسالته فقد قدح في حكمة الله وفي قدرته. وفي رحمته، بل وفي ربوبيته)، المتنبئ الكذاب لا يُمكن أن يُمكِّنه الله، فيه فرق عند العلماء وعند أهل العقل بين الملك الظالم الكافر وبين المتنبئ الكاذب، فالذي يقول إنه نبي وهو ليس بنبي ويتكلم عن الله وكاذب مفترٍ هذا لا يُمكن أن يُمكِّنه الله أبدًا، ولو تمكَّن قليلًا فإن الله -عَزَّ وَجَلَّ- يقطعه ويُظهر ذلك للعالمين، وهذا مذكور في القرآن في سورة الطور: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ \* قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ [الطور: 30، 31]، وفي سورة الأحقاف ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الأحقاف: 8]، فالله يراني ويسمعني وأنا أقول إنني رسوله، فهل يتركه وكاذبٌ عليه! لا يُمكن؛ بل مكَّنه ونصره وأيَّده وقطع دابر أعدائه، فهذا دليلٌ على أنه رسوله، وهذا الموضع مكرر في القرآن.

قال -رَحِمَهُ اللهُ: (وتارة يقرر نبوته ورسالته بما جمع له وكمله به من أوصاف الكمال، وما هو عليه من الأخلاق الجميلة، وأن كل خلق عال سام فلرسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- منه أعلاه وأكمله.

فمن عظمت صفاته، وفاقت نعوته جميع الخلق التي أعلاها: الصدق والأمانة، أليس هذا أكبرَ الأدلة على أنه رسول رب العالمين، والمصطفى المختار من الخلق أجمعين؟).

مثل ما قالت خديجة -رَضِيَ اللهُ عَنْها: "كلا والله، لا يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلَّ ن وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق"، والله -عَزَّ وَجَلَّ- يقول: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4]، والله -عَزَّ وَجَلَّ- وصفه بأوصافٍ مدحه فيها.

قال -رَحِمَهُ اللهُ: (وتارة يقررها بما هو موجود في كتب الأولين، وبشارات الأنبياء والمرسلين السابقين، إما باسمه العلم أو بأوصافه الجليلة، وأوصاف أمته وأوصاف دينه).

وهذا موجود إلى الآن في كتبهم، توجد كلمة "الفارقليط" وتعني "أحمد"، وكثير منهم اهتدى لما نظر في هذا، والله -عَزَّ وَجَلَّ- يقول: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: 6]، وقال تعالى: ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: 157]، وكثير من أهل العلم الذين ردُّوا على كفرة النصارى واليهود ذكروا جملًا معروفة في كتبهم إلى الآن موجودة، ومن ذلك ذكر جبال "فاران" وهي مذكورة بهذا الاسم في كتب اليهود والنصارى، وهي جبال الحجاز بالإجماع، وأمثلة كثيرة جدًّا تدل على نبوته، ومن أراد التوسع في هذا فليرجع إلى كتاب "الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح" لشيخ الإسلام ابن تيمية، وكذلك كتاب للشيخ رحمة الله الهندي طُبع في دار الإفتاء عندنا في إثبات هذا الأمر، والرد على هؤلاء.

قال -رَحِمَهُ اللهُ: (وتارة يقرر رسالته بما أخبر به من الغيوب الماضية والغيوب المستقبلة، التي وقعت في زمان مضى على زمانه، أو وقعت في زمانه والتي لا تزال تقع في كل وقت، فلولا الوحي ما وصل إليه شيء من هذا، ولا كان له ولا لغيره طريق إلى العلم به.

وتارة يقررها بحفظه إياه، وعصمته له من الخلق، مع تكالب الأعداء وضغطهم عليه، وجِدِّهم التام في الإيقاع به بكل ما في وسعهم، والله يعصمه ويمنعه منهم وينصره عليهم، وما ذاك إلا لأنه رسوله حقا، وأمينه على وحيه والمبلغ ما أمر به).

إخباره -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بالغيوب الماضية والمستقبلة أمرٌ ظاهر جدًّا، وهذا دليل على أنه رسول الله حقًّا -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثم ذكر حفظ الله لنبيه، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: 67]، وكذلك حفظ دينه، وحفظ كتابه، وحفظ سنة نبيه -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

انظر! على مرِّ الأزمان لا تظنون أن اليهود والنصارى اليوم والغربيين أو الشرقيين أعداء الإسلام؛ أن عداوتهم للإسلام في هذا الزمان فقط؛ بل في كل الأزمنة نفس هؤلاء الأقوام يُعادون الدين ويُعادون المسلمين، ففي زمن الصحابة كانوا موجودين وكانوا يعادون الإسلام، وهكذا بعدُ إلى زمننا هذا، يجمعون الأموال الهائلة، ويتآمرون ويتفقون فيما بينهم، ويتعاونون مع المنافقين ومع المرتدين؛ وكل هذه المحاولات باءت بالفشل، ودين الله محفوظ، والإسلام محفوظ، والقرآن محفوظ، وسنة محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- محفوظة، نحن الآن في القرن الخامس عشر ودين الله -عَزَّ وَجَلَّ- محفوظ، الله أكبر!

قال -رَحِمَهُ اللهُ: (وتارة يقرر رسالته بذكر عظمة ما جاء به وهو القرآن الذي ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:42]، ويتحدى أعداءه، ومن كفر به أن يأتوا بمثله أو بعشر سور مثله أو بسورة واحدة، فعجزوا ونكصوا وباءوا بالخيبة والفشل، وهذا القرآن أكبر أدلة رسالته وأجلها وأعمها).

ولهذا فإن العناية بالقرآن العظيم حفظًا وتدبُّرًا وعملًا ودعوة إليه من أكبر ما يُعين المؤمن على الثبات وعلى المزيد من الأعمال الصالحات والتقرب إلى الله والرفعة في الدنيا وفي الآخرة، وأعظم الأدلة وأجلها القرآن العظيم، فيا حسرة مَن أعرض عن القرآن وانشغل بعلم الكلام والفلسفة والجدل والمنطق، وأخذ من المبتدعة، وأشغل نفسه بالفلاسفة أو بالروايات أو بالضلالات؛ فما أشد حسرته وخسارته. نسأل الله للجميع الهداية والصلاح.

قال -رَحِمَهُ اللهُ: (وتارة يقرر رسالته بما أظهر على يديه من المعجزات، وما أجرى له من الخوارق والكرامات، الدالِّ كل واحد منها بمفرده ـ فكيف إذا اجتمعت ـ على أنه رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الصادق المصدوق، الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى).

هذه الأشياء التي تخرق العادة لم يقع لغير النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مثلها، حتى الخوارق التي تقع للسحرة أو الكهنة لا تعادل ولا توازي معجزات النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، بل إن السحرة يتشابهون فيما بينهم، أما ما أوتيه نبينا -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فليس فيه شر مثل ما عند هؤلاء، وليس مقدار ما أعطاه الله نبيه مثل ما يؤتى هؤلاء، فهؤلاء للفتنة ولأكل أموال لناس بالباطل وبالكذب وبالزُّور وبالأعمال السيئة وبالظلم والعداون، ووجوههم كدة عليها غبرة، وهؤلاء السحرة معرفون بالخيبة؛ فأمرهم واضح مكشوف مفضوح، أما الأشياء التي يُعطاها نبينا -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من الأمور العظيمة فلا نظير لها في الدنيا، وأمثلتها كثيرة جدًّا، وكان الصحابة يتكلمون بها في مجالسهم ومجامعهم ولا يُسرون بها بعض الناس أو يخفونها عن بعض الناس؛ بل يقولونها للقاصي والداني، وهذا دليل آخر غير الدليل الأول، فانتبه لهذا.

مثلًا: انشقاق القمر كان في مكَّة وكان في حال الضعف والقلَّة، ولا يوجد نصير ولا معين، فما كان -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يُبالي بهم، انشق القمر وأنزل الله عليه هذه الآية، وأراهم انشقاق القمر ورأوه فلقتين بقدرة الله -سبحانه وتعالى- وهذه السورة يقرأها النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في العيد والجموع الهائلة تصلي خلفة، فيقرأها فالمجامع الكبار، يعني ليست هذه الأمور مما يُخفيه لبعض خاصَّته، وإنما يُعلنها.

وهذا من دلائل الإعجاز أيضًا، لما أسري به إلى بيت المقدس، ثم عُرج به، ثم نزل في الصباح أخبر الناس وهم مكذبون وكفار ومشركون، وقال لهم: حصل كذا وكذا...، فآمن به المؤمنون، وهذا دليل نبوته، وهذا غير الدليل نفسه، فهو دليل آخر لأن الضعيف الخائف الكذاب المفتري مثل الأمور التي لا تساعده يُخفيها، وإنما النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يُظهرها ويُبينها للناس، وهذا دليل على صدقه.

قال -رَحِمَهُ اللهُ: (وتارة يقررها بعظيم شفقته على الخلق، وحُنوِّه الكامل على أمته، وأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم، وأنه لم يوجد ولن يوجد أحد من الخلق أعظم شفقة ولا برًا وإحسانًا إلى الخلق منه، وآثار ذلك ظاهرة للناظرين.

فهذه الأمور والطرق قد أكثر الله من ذكرها في كتابه وقررها بعبارات متنوعة، ومعاني مفصلة وأساليب عجيبة، وأمثلتها تفوق العد والإحصاء. والله أعلم).

شفقة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- على الأمة شيء لا نظير له، شفقته ورحمته وحرصه على الهداية شيءٌ لا نظير له.

يا إخوتي الكرام! هو قدوتنا -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ما كان ينتقم لنفسه، فإذا انتُهكت حرمات الله لم يكن أحد أغير منه -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، تخيل هذا الموقف الذي نزل في سورة المائدة: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ [المائدة: 11]، ففي إحدى غزوات النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- نام تحت شجرة، فإذا بمشركٍ من غطفان يأتي ومعه السيف، ويقول: يا محمد، من يمنعك مني؟ يريد قتل النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فلما رفع النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- رأسه قال: «يمنعني الله»، فسقطَ السيف من يده، فأخذ السيف النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وقال للمشرك: «من يمنعك مني؟»، فقال الرجل: كن خير آخذٍ، فلم يقتله النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وأتى به إلى الصحابة وأخبرهم بهذا، فالعقل في هذا الموقف أن يقتله، لأنهم في غزو وهذا المشرك يريد أن يقتل خير الناس، فعقوبته أن يُقتل، فتركه النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وجاء في رواية أنه أسلم، فكان -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بالمؤمنين رؤوف رحيم.

وكقوله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لعمه وهو في سكرات الموت: «قل كلمة "لا إله إلا الله" أحاج لك بها عند الله»، فكان -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حريص جدًّا وحنو ومشفق على الأمة، رؤوف رحيم، يريد الخير للناس أجمعين قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107]، والله لو علم العالمون حرصه عليهم لأسلموا، ولكنهم عاندوا أو جهلوا واعرضوا وصدوا وصدتهم شياطين الإنس والجن، وإلا فوالله العظيم لو أعتا الناس كفرًا يعرف حرص النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- شفقته ورحمته به لأسلم وانقاد لدينه، فهذا من دلائل النبوة.

حتى لما أخبرهم عن الحوض في آخر حياته -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كان كالمودع لهم، فقال: «فقال: أنا فرطكم على الحوض»، يعني: سأموت أمامكم، وخاف أن يُطردوا عنه فحذرهم من ذلك -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وهذا فيه نوع من الشفقة، ففقد النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- صعب على المسلمين، قال: «اصبروا حتى تلقوني على الحوض»، اللهم صلِّ وسلم عليه، فنسأل الله أن يجمعنا وإياكم به في جنات النعيم، ويجعلنا وإياكم من أنصار دينه ومن الدعاة إلى سنته والذَّابين عن شريعته والمتمسكين بهديه.

قال -رَحِمَهُ اللهُ: (القاعدة الثامنة: طريقة القرآن في تقرير المعاد

وهذا الأصل الثالث من الأصول التي اتفقت عليها الرسل والشرائع كلها وهي: التوحيد، والرسالة، وأمر المعاد، وحشر العباد.

وهذا قد أكثر الله من ذكره في كتابه الكريم، وقرره بطرق متنوعة:

منها: إخباره وهو أصدق القائلين عنه وعما يكون فيه من الجزاء الأوفى، مع إكثار الله من ذكره، فقد أقسم عليه في ثلاثة مواضع من كتابه، كقوله: ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [القيامة:1].

ومنها الإخبار بكمال قدرة الله تعالى، ونفوذ مشيئته، وأنه لا يعجزه شيء، فإعادة العباد بعد موتهم فرد من أفراد آثار قدرته.

ومنها تذكيره العباد بالنشأة الأولى، وأن الذي أوجدهم ولم يكونوا شيئًا مذكورًا، لابد أن يعيدهم كما بدأهم، وأن الإعادة أهون عليه، وأعاد هذا المعنى في مواضع كثيرة بأساليب متنوعة.

ومنها: إحياؤه الأرضَ الهامدة الميتة بعد موتها، وأن الذي أحياها سيحي الموتى، وقرر ذلك بقدرته على ما هو أكبر من ذلك، وهو خلق السماوات والأرض، والمخلوقات العظيمة، فمتى أثبت المنكرون ذلك، ولن يقدروا على إنكاره، فلأي شيء يستبعدون إحياء الموتى؟ وقرر ذلك بسعة علمه، وكمال حكمته، وأنه لا يليق به، ولا يحسن أن يترك خلقه سدى مهملين، لا يُؤمرون ولا ينهون، ولا يثابون ولا يعاقبون. وهذا طريق قرر به النبوة وأمر المعاد.

ومما قرر به البعث ومجازاة المحسنين بإحسانهم، والمسيئين بإساءتهم: ما أخبر به من أيامه وسننه سبحانه في الأمم الماضية والقرون الغابرة. وكيف نجى الأنبياء وأتباعهم، وأهلك المكذبين لهم المنكرين للبعث، ونوَّعَ عليهم العقوبات، وأحل بهم المَثُلات، فهذا جزاء معجل ونموذج من جزاء الآخرة أراه الله عباده، ليهلك من هلك عن بينة، ويحي من حي عن بينة.

ومن ذلك: ما أرى الله عباده من إحيائه الأموات في الدنيا كما ذكره الله عن صاحب البقرة والألوف من بني إسرائيل، والذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها، وقصة إبراهيم الخليل والطيور، وإحياء عيسى بن مريم للأموات وغيرها مما أراه الله عباده في هذه الدار، ليعلموا أنه قوي ذو اقتدار، وأن العباد لابد أن يَرِدوا دار القرار، إما الجنة أو النار. وهذه المعاني أبداها الله وأعادها في محال كثيرة. والله أعلم).

يُبين الشيخ عبد الرحمن السعدي -رَحِمَهُ اللهُ- في هذه القاعدة الثامنة من القواعد الحس المتعلقة بتفسير القرآن طريقة القرآن في تقرير المعاد، يعني البعث بعدَ الكوت والإيمان باليوم الآخر.

والإيمان باليوم الآخر أحد أركان الإيمان الستَّة، وأحد الأصول العظام، وهذه الأمور الثلاثة التي ذُكرت هنا

-الإيمان بالله -عَزَّ وَجَلَّ- وإفراده بالعبادة.

- إثبات نبوة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

- الإثبات للمعاد والبعث.

هذه الثلاث براهينها كثيرة جدًّا لا تُحصَى -كما تقدم- المؤمن يتدبر القرآن ويعرف هذه البراهين المذكورة، ويتعلَّمها ويحتجُّ بها، وهذا هو الأمر الذي أريده لنفسي ولإخواني المسلمين أجمعين، أن يستغنوا بحجج القرآن العظيمة الكافية الموصلة للحق، الداحضة والقاطعة للباطل ولجميع الشبه، وهي طريقة القرآن، فهذا من العلم النافع جدًّا.

ومن ذلك ما ذكره الشيخ هنا: أن الله -عَزَّ وَجَلَّ- أكثر من ذكر أدلة البعث بعد الموت في القرآن، وقرره بطرقٍ متنوعة.

قال الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ: (منها: إخباره وهو أصدق القائلين عنه وعما يكون فيه من الجزاء الأوفى، مع إكثار الله من ذكره، فقد أقسم عليه في ثلاثة مواضع من كتابه):

الموضع الأول قوله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن: 7].

الموضع الثاني قوله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس: 53].

الموضع الثالث قوله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 38].

وجه الدلالة: أنه ثبت بالنظر في القرآن العظيم صدق القرآن وصدق الرسول -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فإذا ثبت ذلك وأخبر الله في القرآن عن البعث بعد الموت علمنا أنه حق، ومع ذلك أقسم الله بوقوعه في ثلاثة مواضع، وهو أصدق قيلًا وإن لم يُقسم، وهذا تأكيدٌ بعد تأكيدٍ ويقينٌ بعدَ يقين، وحق على حق، ونور على نور.

قال -رَحِمَهُ اللهُ: (ومنها الإخبار بكمال قدرة الله تعالى، ونفوذ مشيئته، وأنه لا يعجزه شيء، فإعادة العباد بعد موتهم فرد من أفراد آثار قدرته).

وهذا كثير في القرآن، يعني أن الله -عَزَّ وَجَلَّ- على كل شيءٍ قدير، وأن الله لا يعجزه شيء، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: 27]، والعقل السليم يعرف أن الإعادة أهون من الابتداء، كل عاقل يفهم هذا، ما يحتاج تكلُّف، وكله في حق الله -عَزَّ وَجَلَّ- يسير، وهو أهون عليه، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [فاطر: 44]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

قال -رَحِمَهُ اللهُ: (ومنها تذكيره العباد بالنشأة الأولى، وأن الذي أوجدهم ولم يكونوا شيئًا مذكورًا، لابد أن يعيدهم كما بدأهم، وأن الإعادة أهون عليه، وأعاد هذا المعنى في مواضع كثيرة بأساليب متنوعة).

قال تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ \* أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ \* أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ \* نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ \* عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ \* وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: 57 - 62]، تعرفون النشأة الأولى، فأنتم خُلقتم من هذا، أيعجز الله أن يُعيدكم!

وقوله: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾ [الإنسان: 1]، نحن الآن 1443، إذا رجعنا 100 سنة للخلف 1343 لم يكن أحد منَّا موجودًا، فلم نكن شيئًا مذكورًا، لا نُعرَف ولا نُذكَر، فالذي خلقنا هو الذي خلق آباءنا وآباء أجدادنا، وهكذا إلى آدم أبو البشر، فهو الذي خلقه بيده وأسجد له ملائكته، أنجحد قدرته وننسى عظمته، ونقول لا يقدر؟! فهذا كفرٌ مبينٌ.

قال -رَحِمَهُ اللهُ: (ومنها: إحياؤه الأرضَ الهامدة الميتة بعد موتها)، وهذا شيء يراه الناس كل سنة، ففي الصيف الشديد لا ترى شيئًا من الزروع ولا الأزهار ولا أنواع الدواب والهوام من الفراش والنمل، تجدها كلها ماتت من العطش أو اختفت في الأرض، والأرض قاحلة صفراء جدباء، ليس فيها معنى من معاني الحياة، فيُنزل الله المطر ويُحيي الأرضَ بعدَ موتها، فتخرج الزروع والزهور، وتجد العصافير والهوام، وتجد أن الحياة تدب إليها، من أنفع وأمتع ما تراه العين في الدنيا، زينة للأرض عجيبة، كل سنة يراها الناس.

أيضًا ما هو أكبر، وهو خلق السماوات والأرض، قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: 57]، وهذا مكرر في القرآن أيضًا.

قال -رَحِمَهُ اللهُ: (فمتى أثبت المنكرون ذلك، ولن يقدروا على إنكاره، فلأي شيء يستبعدون إحياء الموتى؟).

المنكرون للبعث إذا أنكروا البعث وهم يعلمون أن الله هو الذي خلق السماوات وأن الله الذي خلق الأرض وخلق ما بينهما، قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: 87]، فهم يعرفون ذلك؛ فكيف يستبعدون أن يُعيدهم وهم أهون من السماوات والأرض؟!

اخرج الآن في مكانٍ مكشوف وانظر إلى سعة السماء، وانظر إلى سعة الأرض؛ أين أنت في خلق الله؟ ما مقدارك؟ تجحد قدرة الله أنت أيها الضعيف الصغير الذي لا يكاد يُرى بالعين المجردة إذا نظرت له من طائرة؟! أنت تستنكر وتستبعد قدرة الله أن يُعيدك؟! ما أعظم جبروت بعض الناس! وما أعظم استكبارهم على الله!

قال: (وقرر ذلك بسعة علمه، وكمال حكمته، وأنه لا يليق به، ولا يحسن أن يترك خلقه سدى مهملين)، وهذا مذكور في سورة القيامة وسورة التين وغيرها من مواضع، وهي ذكر الحكمة الإلهية، وأن الله -عَزَّ وَجَلَّ- حكيم ونحن نرى أن بعض الناس يقع في الظلم ويقع في الاعتداء على الآخرين، ثم يموت المظلوم ولا يأخذ حقة؛ فحكمة الله تأبى أن يُترَك هؤلاء، قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى \* أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى \* ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى \* فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى \* أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ [القيامة: 36 - 40]، سبحانه وتعالى! بلى.

وفي قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين: 8]، وفي مواضع من القرآن تبين حكمة الله -عَزَّ وَجَلَّ- وأنها بالغة، فلا يُمكن أن يتكبر الظَّلمة والجبارين الذين عتوا في الأرض وأفسدوا وظلموا، بل من تمام حكمته وعظمته أن حتى البهائم التي صار بينها اعتداء من بعضها على بعض تؤخَذ الحقوق للجميع، ويقتص لبعضهم من بعض، ثم يُقال للبهائم: كوني ترابًا. ولهذا فسِّرَ قول الله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَالَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ [النبأ: 40] إذا رأى هذه البهائم تكون ترابًا ولا تنتقل للنار فتعذب في النار، فيتمنى أن يكون مثلها، ويتحسَّر على كفره.

قال -رَحِمَهُ اللهُ: (ومما قرر به البعث ومجازاة المحسنين بإحسانهم، والمسيئين بإساءتهم: ما أخبر به من أيامه).

معنى "أيام الله": الوقائع العظام التي نصر الله فيها أنبياءه، كوقائع قوم نوح وعاد وثمود ومدين قوم شعيب، وفرعون وجنده، وقد قال الله -عَزَّ وَجَلَّ- لموسى: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ [إبراهيم: 5]، معنى ذلك أننا لابد أن نتدبَّر حتى تكون عندنا هذه الآيات، فكل موضع في القرآن يُذكر فيه "آيات" أو "آية" فهذه براهين عقلية شرعية.

براهين عقلية: لأنها برهان على الحق.

وبراهين شرعيَّة: لأن الشرع بيَّنها ونبَّه عليها.

وهي أحسن الأدلة العقليَّة وأقواها، أي موضع في القرآن يُذكر فيه لفظ "الآية" فمعناه: الدليل والعلامة والبرهان على الحق، كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ [الروم: 20]، فـ "من" للتبعيض، فهذه ليست كل آياته.

وكقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: 21]، إلى آخر الآيات.

إذًا قوله "أيام الله" يعني الوقائع التي نصر الله فيها أنبياءه ونجاهم وأهلك المكذبين، فهذا جزاءٌ معجَّل في الدنيا.

سبحان الله! النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- نهى عن إتيان أماكن المعذَّبين، ولكن لحكمةٍ بالغة فإنَّ الله -عَزَّ وَجَلَّ- أبقى علامات على وجود هذه الآيات، وإلا فإن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- نهانا أن نأتي هذه الديار إلا ونحن باكين، كديار ثمود وأمثالهم، فقال: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فتباكوا، خشية أن يحل بكم ما نزل بهم»؛ فتجد هذه المواضع في الأرض معروفةٌ إلى اليوم، والناس كلهم حتى غير المسلمين يقولون: هذه ديار ثمود، هؤلاء قوم فرعون، نفس التي حكى الله أخبارها وبينها رسوله، فالآية برهانٌ باقٍ يراه الناس.

وكذلك قوم لوط أهلكم الله -عَزَّ وَجَلَّ- للكفر والشرك ولفعل الفاحشة، قال الله فيهم: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (137) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: 137، 138]، تمرون عليهم وأنت ذاهبون للشام وترون ديارهم، فهذا شيء أراه الله الناس وهو باقٍ إلى اليوم.

قال: (ومن ذلك ما أرى الله عباده من إحياء الأموات في الدنيا).

في سورة البقرة خمس مواضع، وفي سورة آل عمران موضع.

أما سورة البقرة:

الموضع الأول: قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 73].

الموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: 56]، قتيل ضُرب بالبقرة فأحياه الله!

الموضع الثالث: قوله تعالى في صاحب القرية: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ﴾ [البقرة: 259]، تخيل! مائة عام!

قال: ﴿ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ في آية باقية إلى الآن، حتى لو لم نرها فخبر الله عنها حق.

قال: ﴿وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ فقام الحمار يمشي.

قال: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

الموضع الرابع: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: 260]، يعني: حق اليقين.

قال: ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا﴾ طيور ميِّتة مقطَّعة.

قال: ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

الموضع الخامس: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ [البقرة: 243].

فهذه خمس مواضع في سورة البقرة حصلت في الدنيا.

أما في سورة آل عمران ذكر الله تعالى عن عيسى: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾ [المائدة: 110].

وفي سورة الكهف: قصة أصحاب الكهف.

فهذه أشياء مشاهدَة بيَّنها الله -عَزَّ وَجَلَّ- في كتابه ليعلموا أن الله على كل شيءٍ قدي، وأنه هو الذي يُحيي الموتى.

وهذه أدلَّةٌ على البعث، وهي أدلة أصول كبار.

أما الأدلة التفصيليَّة أفرادها كثيرة جدًّا في كتاب الله وفي سنة رسوله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

مثلًا:

- الإجماع من الأمم يُعدُّ دليلًا.

- اقتضاء الله أن يجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، فعبادٌ محسنون ماتوا ولم يروا شيئًا، مثل مصعب بن عمير، فمصعب من أكبر التُّجار وأهله من أنعم الناس في مكَّة، ولما أسلم صار من أشد الناس فقرًا وقُتل -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- شهيدًا، فلما جاؤوا يغطُّونه لم يجدوا شيئًا، إن غطوا رأسه انكشفت رجلاه، وإن غطوا رجليه انكشف وجهه -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، والله تعالى قال: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: 31]، فهذا دليل على البعث بعد الموت.

وهكذا إذا تمَّلتَ وجدتَّ أفرادًا كثيرة يصعب حصرها حقيقة، كلها تخرج من تدبُّركَ للقرآن وللسُّنَّة.

قال -رَحِمَهُ اللهُ: (القاعدة التاسعة: في طريقة القرآن في أمر المؤمنين وخطابهم بالأحكام الشرعية

قد أمر الله تعالى بالدعاء إلى سبيله بالتي هي أحسن، أي بأقرب طريق موصل للمقصود، محصل للمطلوب، ولا شك أن الطرق التي سلكها الله في خطاب عباده المؤمنين بالأحكام الشرعية هي أحسنها وأقربها.

فأكثر ما يدعوهم إلى الخير وينهاهم عن الشر بالوصف الذي من عليهم به وهو الإيمان، فيقول: يا أيها الذين آمنوا افعلوا كذا واتركوا كذا لأن في ذلك دعوة لهم من وجهين:

أحدهما: من جهة الحث على القيام بلوازم الإيمان، وشروطه ومكملاته، فكأنه يقول: يا أيها الذين آمنوا قوموا بما يقتضيه إيمانكم من امتثال الأوامر، واجتناب النواهي، والتخلق بكل خلق حميد والتجنب لكل خلق رذيل.

فإن الإيمان الحقيقي هكذا يقتضي، ولهذا أجمع السلف أن الإيمان يزيد وينقص، وأن جميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة من الإيمان ولوازمه، كما دلت على هذا الأصل الأدلة الكثيرة، من الكتاب والسنة ـ وهذا أحدها ـ حيث يصدر الله أمر المؤمنين بقوله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أو يعلق فعل ذلك على الإيمان وأنه لا يتم الإيمان إلا بذلك المذكور.

والوجه الثاني أن يدعوهم بقوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ افعلوا كذا، أو اتركوا كذا، أو يعلق ذلك بالإيمان، يدعوهم بمنته عليهم بهذه المنة، التي هي أجل المنن، أي: يا من مَنَّ الله عليهم

فالوجه الأول: دعوة لهم أن يتمموا إيمانهم، ويكملوه بالشرائع الظاهرة والباطن.

والوجه الثاني: دعوة لهم إلى شكر نعمة الإيمان، ببيان تفصيل هذا الشكر، وهو الانقياد التام لأمره ونهيه، وتارة يدعوا المؤمنين إلى الخير، وينهاهم عن الشر، بذكر آثار الخير، وعواقبه الحميدة العاجلة والآجلة، وبذكر آثار الشر، وعواقبه الوخيمة في الدنيا والآخرة.

وتارة يدعوهم إلى ذلك بذكر نعمه المتنوعة، وآلائه الجزيلة، وإن النعم تقتضي فهم القيام بشكرها، وشكرها هو القيام بحقوق الإيمان.

وتارة يدعوهم إلى ذلك بالترغيب والترهيب، ويذكر ما أعد الله للمؤمنين الطائعين من الثواب وما للعصاة من العقاب.

وتارة يدعوهم إلى ذلك بذكر ما له من الأسماء الحسنى، وما له من الحق العظيم على عباده، وأن حقه عليهم أن يقوموا بعبوديته ظاهرًا وباطنًا، ويتعبدوا له وحده، ويدعوه بأسمائه الحسنى وصفاته المقدسة.

فالعبادات كلها شكر لله وتعظيم وتكبير، وإجلال وإكرام، وتودد إليه، وتقرب منه.

وتارة يدعوهم إلى ذلك، لأجل أن يتخذوه وحده وليًا وملجأ، وملاذا ومَعاذا، ومفزعا إليه في الأمور كلها، وينيبوا إليه في كل حال، ويخبرهم أن هذا هو أصل سعادة العبد وصلاحه وفلاحه، وأنه إن لم يدخل في ولاية الله وتوليه الخاص تولاه عدوه الذي يريد له الشر والشقاء، ويمنيه ويغره، حتى يفوِّته المنافع والمصالح ويوقعه في المهالك.

وهذا كله مبسوط في القرآن بعبارات متنوعة.

وتارة يحثهم على ذلك ويحذرهم من التشبه بأهل الغفلة والإعراض، والأديان المُبَدَّلة، لئلا يلحقهم من اللوم ما لحق أولئك الأقوام. كقوله ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: 65] ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِين﴾ [البقرة: ة35] ﴿وَلا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [لأعراف: 205] ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد:16]، إلى غير ذلك من الآيات).

هذه هي القاعدة التاسعة، ونعرف فيها الطريقة في الدعوة إلى الله -عَزَّ وَجَلَّ- والدعوة إلى الدين، والدعوة إلى الأوامر والنواهي؛ كيف هي في القرآن الكريم، كيف يُدعَى المؤمن، أنت مؤمن وهذه مؤمنة وهذا مسلم وهذه مسلمة؛ كيف دعاهم القرآن؟

إذا عرفت هذه الطريقة سلكتها في دعوتك أنت، فتتلمِّسَ القرآن وتيسر على هداه. كيف ذلك؟

فيه أشياء صريحة واضحة -مثلما ذكر الشيخ- كقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: 70]، وكقول: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: 119]، ونحو ذلك.

بيَّن الشيخ أن قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ افعلوا كذا؛ يُعد من الإيمان، واستنبطَ من ذلك الشيخ أن الإيمان يزيد وينقص، إذا فعلتم ذلك قوي إيمانكم، وإذا تركتم ذلك نقص إيمانكم.

وأيضًا أن الشرائع الظاهرة والباطنة من الإيمان.

فالشرائع الظاهرة: هي الأفعال الظاهرة مثل الصلاة والزكاة والصوم، قد أمر الله بها.

أما الشرائع الباطنة: هي الأمور التي تكون في القلب، مثل قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: 23]، هذا التوكُّل لا أحد يراه بعينه، فهذا من الإيمان.

إذًا؛ علمنا أن الأمور التي هي من أعمال القلوب تعدُّ من الإيمان، وعلمنا ذلك من هذه الآيات وأمثالها.

يقول الشيخ: إن هناك وجه آخر نستفيده من هذا الخطاب (﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ افعلوا كذا)، وهو أن هذا من نعمة الله ومنَّته على عبده، فأنتَ آمنت إذًا فافعل كذا وكذا، فالله يمتن عليكَ بالإيمان، فالإيمان والهداية للإسلام منَّة من الله علينا، فالله هو الذي امتنَّ علينا وتكرَّم علينا وأحسن إلينا، وهذا يدعونا إلى أن نشكر الله على هذه النِّعمة فنقوم بفعل الأوامر وترك النواهي، فنقوم بشكر نعمة الله علينا.

ثم بيَّن الشيخ أن هذا تارة يدعو المؤمنين إلى الخير بذكر آثار الخير وعواقبه الحميدة.

مثال ذلك:

\* في سورة النازعات: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى \* فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات: 40، 41]، هنا لم يأتِ أمر "خف ربك، اترك الهوى"، بل ذكر الله العاقبة الحميدة لمن قام بهذه الصفتين:

- من خاف مقام ربه.

- نهى النفس عن الهوى.

فعلمنا بذلك أن هذا من أساليب الدعوة ومن أساليب الأوامر القرآنية.

\* في سورة الرحمن: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: 46]، ثم وصف هذه هاتين الجنتين: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: 60]؛ فهذه دعوة من القرآن لأن تتخلَّق بهذه الأخلاق حتى تكون من أهلها.

\* في أول سورة المؤمنون وفي وسطها وفي آخرها:

ففي أول السورة قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: 1]، الأمر انتهى وتم، أدركوا الفلاح وقُضي الأمر فحازوا الفلاح، فالتعبير بالماضي بعد "قد" يفيد أنن الأمر قد تمَّ وقُضي.

ثم ذكر صفاتهم في عشر آيات: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ \* وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ \* وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ \* وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ \* إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ \* فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ \* وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ \* وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ \* أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ \* الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: 2 – 11]، عاقبة حميدة عظيمة، اللهم اجعلنا منهم ووالدينا وجميع إخواننا المسلمين.

أنظرتَ كيف دعوة القرآن! جاء بصيغة الماضي هو الخبر المقطوع به، أنَّ مَن اتَّصف بهذه الصفات تمَّ فلاحه، وأدركَ الفلاح ولا محالة ولا ريب ولا شك.

وفي وسط السورة قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ \* وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ \* وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ \* وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ \* أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ \* وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [المؤمنون: 57 - 62].

وفي آخر السورة ذكر الله -عَزَّ وَجَلَّ- موازين المؤمنين إذا ثقُلَت، وذكر -عَزَّ وَجَلَّ- ما حصل للكافرين في نار جهنَّم، وكانوا في الدنيا يضحكون من المؤمنين ويسخرون منهم، قال تعالى في وصف المؤمنين أهل الجنَّة ومخاطبًا لأهل النار: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (109) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (110) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [المؤمنون: 109 - 111]، ولها نظائر أخرى، كما في سورة الطور، لما ذكر الله تعالى من أن أهل الجنة يجلسون مع بعضهم ويتحدَّثون -اللهم اجعلنا منهم- فقال: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ \* قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [الطور: 25، 26]، أي: مشفقون من عذاب الله ومن غضبه ومن النار.

قال: ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ [الطور: 27]، ثم انظر الدليل على أن الإيمان لابد فيه من عمل: ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [الطور: 28]، فهل أنتَ منهم!

أنت الآن تقرأ الآيات ثم عرفت أن هذا هو حال أهل الجنة وهذا كلامهم في الجنة، فتقول: يا رب أكون منهم. فندعوه في الدنيا ونلجأ إليه، ونشفق من الآخرة، فإذا كان هذا المعنى موجود عندي فأنا على خير، وإذا كان المعنى ضعيف عندي فأزيده وأقويه.

فهذا من أساليب القرآن، وهناك آيات كثيرة، وقد تأخذ منَّا وقت ولكنها مفيدة حتى ينتبه الطالب، قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: 63]، الآية ما فيها أمر ولا نهي؛ بل هي خبر فقط، ثم في آخر الآيات قال: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ [الفرقان: 75]، والغرفة هي: الجنة.

وكل الأوصاف المذكورة هي دعوة لكل مَن آمن للاتِّصاف بها من ذكرٍ أو أنثى، وقِسْ على هـذا.

ذم ذكر الشيخ التحذير من التشبه بأهل الغفلة والإعراض والكفر: (كقوله ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: 65] ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِين﴾ [البقرة: ة35] ﴿وَلا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [لأعراف: 205] ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد:16])، فلا تكن من هؤلاء، وهذا من أساليب دعوة القرآن.

إذًا؛ هذا المسلك إذا علمته سلكتَه في دعوتك إلى الله، وتتلمَّس طريقة القرآن، وهذا من أعظم المعاني التي نسأل الله -عَزَّ وَجَلَّ- أن يوفقنا وإيَّاكم للعمل بها والدعوة غليها والصبر على ذلك.

قال -رَحِمَهُ اللهُ: (القاعدة العاشرة: في طرق القرآن إلى دعوة الكفار على اختلاف مللهم).

وهذه القاعدة مما نحتاجها، وهي الدعوة إلى الله لغير المسلمين على اختلاف الملل والنِّحل، حتى الملاحدة، وأنا أتعجَّب من أناس يقولون: ما ينفع أن نحتج بالقرآن على المخالفين لأنهم لا يُقرون بالقرآن أصلًا فكيف تقرأ عليهم القرآن!

يا أخي! غفر الله لك، ليس هكذا، فالقرآن مشتمل على أنواع الأدلة، والشيخ الآن سيذكر لك نوعًا من التنبيهات -ولن يحصيها أحد- فلو اجتمع أهل العلم على أن يحصوها ما استطاعوا، فكيف تهمل هذا الكنز العظيم، والبحر الزخار الذي لا ينقطع من الأدلَّة والبراهين في الدعوة إلى الإسلام، وتذهب تبحث عن طرق أخرى! والله هذا حرمان، ولكن عسى الله أن يفتح قلوبنا وقلوب إخواننا المسلمين أجمعين.

قال -رَحِمَهُ اللهُ: (يدعوهم إلى الإسلام، والإيمان بمحمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بما يصفه من محاسن شرعه ودينه، وما يذكره من براهين رسالة محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ليهتدي منْ قصد الحق والإنصاف، وتقوم الحجة على المعاند).

ذكر هنا نوعين:

الأول: بيان محاسن الدين الإسلامي، فالقرآن نفسه بيَّنَ محاسن الدين الإسلامي.

الثاني: براهين صدق الرسول -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بيَّنها القرآن.

وهذان الطريقان أعظم وأنفع الطُّرق في دعوة غير المسلم، وهي طرق قرآنية تعتمد على القرآن فيها.

قال: (بما يصفه من محاسن شرعه ودينه)، فهذا هو الأول.

الثاني: (وما يذكره من براهين رسالة محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).

تقدَّم شيء من البراهين في القاعدة السابعة "تقرير نبوة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"؛ فكل الأدلة هذه؛ بل حتى براهين البعث، كلها مما يُدعَى بها.

قال -رَحِمَهُ اللهُ: (وهذه أعظم طريق يدعى بها جميع المخالفين لدين الإسلام.

فإن محاسن دين الإسلام ومحاسن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وآياته وبراهينه فيها كفاية تامة للدعوة، بقطع النظر عن إبطال شبههم، وما يحتجون به، فإن الحق إذا اتضح علم أن كل ما خالفه فهو باطل وضلال).

أسأل الله أن يفتح قلبي وقلوبكم وقلوب إخواننا المسلمين أجمعين، فهذا الموضع مهم، وأنا أنبهكم عليه، فأحيانًا مع حرص بعض الناس على الخير والدعوة إلا أنه يأتي فيقول: الملاحدة عندهم الشبهة الفلانية! نقول: يا أخي لا تشغل بالك.

ويأتي يقول: النصارى عندهم شبهة كذا وكذا! نقول: يا أخي لا تشغل بالك ولا تشغل بال إخوانك؛ فليس هذا هو الطريق الصحيح أنَّك تعدد الشُّبه وتكررها في المجالس وتبحث وتقول: سمعت شبهة كذا...، لا، ليس هذا هو الطريق؛ بل طريق القرآن هو الطريق الصحيح، وهو أنَّك تذكر الأصول والمحاسن والبراهين بقطع النَّظر عن الشبهات التي يُثيرها الأعداء.

أعطيك مثالًا: كم مرض في الدنيا؟

يقولون: السعال فقط ستمائة نوع، وإذا جئت لمرض القلب تجده آلاف الأنواع، والكلى، ومرض العيون، ومرض الرأس...، هل من المعقول أن آتي للصحيح الطيب وأقول له: فيه من أمراض الدنيا كذا وكذا...، وأعددها عليه حتى أعلمه الوقاية! ما الفائدة؟!

أنت ما تحتاج أن تعدد عليه الأمراض، بل تعطيه الأصل الذي يحفظ به صحته ويُقيم به جسم، كأن تقول: عليك بالأكل السليم والرياضة والتغذية والبعد عن الأشياء الضارة، فتعطيه القواعد الكبار، فهذا يكفي.

لو قُدِّر أنَّه مرض من الأمراض الخطيرة الفتاكة أو الأمراض التي نزلت به، تقول: تعالَ نعالجك عن هذا المرض بعينه.

وهكذا الشبهات نتعامل معها بمثل هذا المنهج القرآني، ما نجلس نذيعها وننشرها ونكررها، ونقول: فلان الخرافي يدعو إلى عبادة القبور عنده الشبهة الفلانية....، ما نحتاج هذا؛ بل بيِّن الحق ببطلان عبادة غير الله، وأنَّ عبادة الأموات شرك، بيِّنها من القرآن، واذكر الأدلة على وجوب عبادة الله، وهذا يكفي.

إذا احتاج هذا الشخص -فلان بن فلان- وصارت عنده شبهة، أو مجموعة معينة صارت عندهم شبهة؛ أزلْ الشبهة عنهم وردَّ على شبهتهم هم، وغيرهم ل يحتاج هذا الشيء.

أعطيكم مثالًا آخر: الخوارج الذين خرجوا علينا كتنظيم القاعدة والدواعش وغيرهم، هؤلاء شبهاتهم كثيرة، الآن كثير من الشباب الصغار الذين كبروا ما يدرون عن هذه الشبهات ولا مرَّت بهم، فهل من المعقول أن أعيد عليهم الشبهات من جديد! قد تعلق بقلبه واحدة ولا تخرج!

فطريقة السنة: أن تعطيه الأصول التي تحميه وتقويه في عقيدته وفي دينه، وتعصمه من الفتن -بإذن الله- وغذا جاءه ما يحتاج إليه يرجع الى الراسخين في العلم، فيرجع إلى حل المشكل فقط، والقرآن فيه الجواب عن جميع الشبهات، قال -عَزَّ وَجَلَّ- في سورة الفرقان: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: 33].

مثال آخر: الأحمدية -وهم القديانية- الذين يعتقدون أن ميرزا نبي ويصدقونه، وهو كذاب مفتر؛ فهؤلاء عندهم مجموعة من الشبهات، وأنا أجزم أن أكثركم وأكثر الناس ما يدري عنهم ولا سمع بهم، فلماذا أعيد شبهاتهم مع أنها تافهة ساقطة لا قيمة لها!

الشيخ هنا يقول: (بقطع النظر عن إبطال شبههم، وما يحتجون به، فإن الحق إذا اتضح علم أن كل ما خالفه فهو باطل وضلال)، والله هذا منهج عظيم جدًّا.

قد تقول: بعض العلماء ألفوا في الرد على الشبهات.

نقول: نعم، إذا احتيج إلى ذلك، كأن يأتي أهل الكلام أو أهل البدع أو أهل الشرك الأكبر وينشرون شبهاتهم في المجتمع، فانتشرت وصارت إلى كل بيت؛ فهنا يحلها العلماء ويردون على هذه الشبهات بالدليل من كلام الله ومن كلام رسوله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مع البقاء على الأصل الكبير وهو بيان الحق وبراهينه والاستمرار في ذلك.

قال -رَحِمَهُ اللهُ: (ويدعوهم بما يخوفهم من أخذات الأمم وعقوبات الدنيا والآخرة).

قوله: (أخذات)، يعني: العذاب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: 102].

قال -رَحِمَهُ اللهُ: (وبما في الأديان الباطلة من أنواع الشرور، والعواقب الخبيثة، وأنها إنما تقوم على الغفلة والتكذيب لآيات الله الكونية والعلمية بالوقوع تحت سلطان الجهل والتقليد الأعمى للآباء والشيوخ والسادة، ويحذرهم من طاعة هؤلاء الرؤساء، فإنهم رؤساء الشر، ودعاة النار، وأنهم لابد أن تتقطع نفوسهم على ما عملوه وقدموه حسرات، وأنهم يتمنون أن لو أطاعوا الرسول -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ولم يطيعوا السادة والرؤساء، وأن مودتهم وصداقتهم وموالاتهم ستتبدل بغضا وعداوة).

وهذا مذكور في القرآن كثير.

قوله: (وبما في الأديان الباطلة من أنواع الشرور)، منه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: 85]، ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: 17]، وقوله: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ [البقرة: 137]، وقوله: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: 115].

قوله: (ويحذرهم من طاعة هؤلاء الرؤساء، فإنهم رؤساء الشر، ودعاة النار، أنهم لابد أن تتقطع نفوسهم على ما عملوه وقدموه حسرات)، منه قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (166) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: 166، 167]، نعوذ بالله!

وقال في سورة الأحزاب: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا \* رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: 67]، وقال تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (27) يَاوَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ [الفرقان: 27، 28].

نستفيد من هذه الآيات إحدى طرق القرآن في الدعوة، أكثر الكفار اليوم كفرهم ناتج ليس عن قناعة ولا عن براهين، بل مجرد طاعة واتباع للرؤساء والأكابر فقط، وإلا قد وصلتهم دلائل وبراهين على نبوة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فأعرضوا عنها، فسيعاقبهم الله على هذا.

ولهذا فإن من أساليب القرآن أن تسلك هذا الأسلوب، فتحذر الناس من طاعة الرؤساء والكبار على الشرك الأكبر وعلى الكفر والتكذيب بالرسول -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وعلى غير ذلك.

وقال تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: 67]، وكذلك ذكر في سورة العنكبوت أن مودَّتهم تذهب، فهذه المودة القائمة في الدنيا قائمة على أمور دنيوية فقط من هؤلاء، أما في الآخر يتباغضون ويتعادون، فهذه من طريقة القرآن في الدعوة.

قال -رَحِمَهُ اللهُ: (ويدعوهم أيضًا بنحو ما يدعوا المؤمنين بذكر آلائه ونعمه، وأن المنفرد بالخلق والتدبير والنعم الظاهرة والباطنة هو الذي يجب على العباد طاعته، وامتثال أمره واجتناب نهيه).

وهذا في سورة النحل كثير، ولهذا تسمى سورة النحل بسورة "النِّعَم"، قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (53) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: 53، 54].

وهذا من الأساليب النافعة جدًّا، فعندما تأتي عند الكافر غير المسلم يعبد صنم أو يعبد قبر أو يعبد الشمس والقمر؛ فتذكر بالخالق -جل وعلا- وأنهم هو الذي يرزق ويدبر الكون، فهذا أمر يُقر به حتى الكفار، ولا تظن أنهم لا يُقرون به، من يعبدون الأصنام يعرفون أن هناك خالق، ويدركون أن هذه الأصنام مجرد واسطة وشفعاء فقط، فتبين له أن النعم من الله، وأن الرزق من الله، وأن الله هو مدبر الكون؛ فهذا أسلوب نافع جدًّا فلا تستعن به، فهذا من أساليب القرآن في دعوة الكفار إلى الإسلام، فيخاطب غير لمسلمين بهذا، حتى الملاحدة، فبعض الملاحدة إذا جاءتهم البلايا والضراء يلجؤون إلى الله! أما في حال الرخاء يتظاهر بالإلحاد، فإذا ركب الطائرة الآن وخربت ورأى لهيب يلتهب؛ تجدهم يجأرون ويدعون الله، ويذهب عنهم كل شيء، قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾، وهذا لا يكون للصنم، ولا يكون لعيسى بن مريم؛ بل يعرفون أن هناك خالق، حتى البوذيون يعرفون أن هناك خالق وهم مشركون كفار.

فمن أساليب الدعوة: أن تبين أن الخالق الذي تؤمن به هو الله، وأن الله هو الذي يرزقك وهو الذي يعطيك وهو الذي أحياك وهو الذي يُميتك؛ فلماذا تعبد غيره؟!

وبهذا كان النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يدعو إلى الإسلام، لا نأتي إلى أساليب مخترعة ضعيفة ونترك هذا الأسلوب القرآني النبوي.

قال -رَحِمَهُ اللهُ: (ويدعوهم أيضًا بشرح ما في أديانهم الباطلة، وما احتوت عليه من القبح، ويقارن بينها وبين دين الإسلام، ليتبين ويتضح ما يجب إيثاره، وما يتعين اختياره).

هذا في سورة الأنعام كثير، حرموا أشياء من بهائم الأنعام، وأحلوا أشياء من تلقاء أنفسهم، وكذلك في كفرة اليهود والنصارى، فالله -عَزَّ وَجَلَّ- يبين لهم ما في أديانهم من الانحرافات والضلالات والظلم.

ومن الأمثلة في سورة المائدة قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: 50].

ولهذا يجب على طلبة العلم أن يتفطَّنوا لهذا المعنى، وهو: بيان محاسن الدين الإسلامي، فهذا من أعظم وسائل الدعوة إلى الإسلام، والشيخ عبد الرحمن السعدي صاحب هذا الكتاب -رَحِمَهُ اللهُ- له كتاب آخر اسمه "محاسن دين الإسلام".

قال -رَحِمَهُ اللهُ: (ويدعوهم بالتي هي أحسن. فإذا وصلت بهم الحال إلى العناد والمكابرة الظاهرة توعدهم بالعقوبات الصوارم، وبين للناس طريقتهم التي كانوا عليها، وأنهم لم يخالفوا الدين جهلًا وضلالًا أو لقيام شبهة أوجبت لهم التوقف، وإنما ذلك جحود ومكابرة وعناد.

ويبين مع ذلك الأسباب التي منعتهم من متابعة الهدى، وأنها رياسات وأغراض نفسية، وأنهم لما آثروا الباطل على الحق طبع على قلوبهم وختم عليها، وسد عليهم طريق الهدى عقوبة لهم على إعراضهم وتوليهم الشيطان، وإعراضهم عن الرحمن، وأنه ولاهم ما تولوا لأنفسهم.

وهذه المعاني الجزيلة مبسوطة في القرآن في مواضع كثيرة، فتأمل وتدبر القرآن تجدها واضحة جلية، والله أعلم).

قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: 46]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ [الأنعام: 35]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر: 8]، وقال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: 33].

في هذا تسلية للدعاة إلى الله وتصبير لهم، فالنبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إمامك وقد حصل له كذا وقيل له كذا ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ﴾ [الكهف: 6].

نسأل الله -عَزَّ وَجَلَّ- أن يوفقنا وإياكم لطريقة القرآن في الدعوة.

قال -رَحِمَهُ اللهُ: (القاعدة الحادية عشرة: مراعاة دلالة التضمن والمطابقة والالتزام.

كما أن المفسر للقرآن يراعي ما دلت عليه ألفاظه مطابقة، وما دخل في ضمنها، فعليه أن يراعي لوازم تلك المعاني، وما تستدعيه من المعاني التي لم يعرج في اللفظ على ذكرها.

وهذه القاعدة: من أجل قواعد التفسير وأنفعها، وتستدعي قوة فكر، وحسن تدبر، وصحة قصد. فإن الذي أنزله للهدى والرحمة هو العالم بكل شيء، الذي أحاط علمه بما تكن الصدور، وبما تضمنه القرآن من المعاني، وما يتبعها وما يتقدمها، وتتوقف هي عليه.

ولهذا أجمع العلماء على الاستدلال باللوازم في كلام الله لهذا السبب).

هذا من طرق التفسير الجميلة النافعة جدًّا، ولكن لا يُوفق لهذا إلا أولوا الألباب وأهل الرسوخ في العلم، وليس كل أحدٍ يقدر على هذا المعنى من أنواع التفسير الصحيحة، وهي: معرفة اللوازم الصحيحة التي دلت عليها الآيات، أما المطابقة فهي واضحة، كقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ [النحل: 90]، فالعدل واجب، وهذا يُسمى "فهم مطابقة".

أما في سورة القصص فقال تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: 26]، من أين أخذت وصف القوي ووصف الأمين والمدة كانت ساعتان أو ثلاث، فكيف عرفت أنه قوي وأمين؟

من خلال أمور أخرى، وهذا يُسمَّى "التفسير باللازم"، وهذا مذكور في القرآن هنا في قوله: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص: 23]، فمخالطة الرجال تنبذه النفوس الصحيحة.

وقول المرأة: ﴿وأبونا شيخ كبير﴾ يعني لو كان أبونا قوي ونشيط ما خرجنا من بيتنا، ويُستدل به على معاني أخرى، وهو أن الأصل في المرأة القرار في البيت ولا تخرج إلا حاجة، وهذا استُنبط بالمفهوم اللازم.

قال تعالى: ﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ \* فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: 24، 25]. من أين أخذت المرأة أنه قوي وأمين؟

أما صفة القوة فلأن المرأتين شاهدتاه يحمل الماء الذي يحمله عشرة.

وأما صفة الأمانة، فلأنه لما كان ذاهبًا إلى البيت قال للمرأة: أنا أمامك، وذلك حتى لا يرى جسم المرأة؛ فعرفتا أمانته كما عرفتا قوته.

والشيخ هنا اشترط ثلاثة أشياء حتى تدرك هذا النوع من التفسير:

- قوة فكر.

- حسن تدبر.

- صحة قصد.

فلا تحمل الآيات ما لا تحتمل، أو تريد أن تحملها على هواك أو على بدعة، ولابد أن يكون الكلام موافقًا للشرع.

قال -رَحِمَهُ اللهُ: (والطريق إلى سلوك هذا الأصل النافع: أن تفهم ما دل عليه اللفظ من المعاني فإذا فهمتها فهمًا جيدًا، ففكر في الأمور التي تتوقف عليها، ولا تحصل بدونها، وما يشترط لها. وكذلك فكر فيما يترتب عليها، وما يتفرع عنها، وينبني عليها، وأكثر من هذا التفكير وداوم عليه، حتى تصير لك ملكة جيدة في الغوص على المعاني الدقيقة. فإن القرآن حق، ولازم الحق حق، وما يتوقف على الحق حق، وما يتفرع عن الحق حق، ذلك كله حق ولابد.

فمن وفق لهذه الطريقة وأعطاه الله توفيقًا ونورًا، انفتحت له في القرآن العلوم النافعة، والمعارف الجليلة، والأخلاق السامية، والآداب الكريمة العالية.

ولنمثل لهذا الأصل أمثلة توضحه:

منها: في أسماء الله الحسنى [الرحمن الرحيم] فإنها تدل بلفظها على وصفه بالرحمة، وسعة رحمته، فإذا فهمت أن الرحمة التي لا يشبهها رحمة: هي وصفه الثابت، وأنه أوصل رحمته إلى كل مخلوق، ولم يخل أحد من رحمته طرفة عين: عرفت أن هذا الوصف يدل على كمال حياته، وكمال قدرته، وإحاطة علمه، ونفوذ مشيئته، وكمال حكمته، لتوقف الرحمة على ذلك كله، ثم استدللت بسعة رحمته على أن شرعه نور ورحمة. ولهذا يعلل الله تعالى كثيرًا من الأحكام الشرعية برحمته وإحسانه لأنها من مقتضاها وأثرها).

اسم "الرحمن الرحيم" دلالة المطابقة على أنهما اسمين من أسماء الله -عَزَّ وَجَلَّ- حسنى، فدلالة المعنى على اللفظ دلالة مطابقة.

فيه معاني أخرى تلزم منها، مثال ذلك:

- أنه حي، لأنه لا يكون موصوفًا بالرحمة وهو ليس بحي، فهذا فيه إثبات الحياة.

- كمال القدرة، إذ لا يُوصف بالرحمة وهو عاجز.

- نفوذ المشيئة، لأن الرحيم هو الذي يفعل الرحمة ويوصلها، وهذا يدل على أنَّ مشيئته نافذة.

- كمال الحكمة.

- ثم تستدل بعدَ ذلك على أنه كان من أسمائه "الحمن الرحيم"، فشرعه كله رحمة، ولهذا يعلل كثيرًا من الأحكام باسم "الرحيم".

فهنا استدللتَ باسمين من أسماء الله على معاني متعددة، وهذا من توفيق الله للمفسِّر.

قال -رَحِمَهُ اللهُ: (ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: 58]، فإذا فهمت أن الله أمر بأداء الأمانات إلى أهلها: استدللت بذلك على وجوب حفظ الأمانات، وعدم إضاعتها والتفريط والتعدي فيها، وأنه لا يتم الأداء لأهلها إلا بذلك.

وإذا فهمت أن الله أمر بالحكم بين الناس بالعدل، استدللت بذلك على أن كل حاكم بين الناس في الأمور الكبار والصغار، لابد أن يكون عالمًا بما يحكم به: فإن كان حاكمًا عامًا، فلابد أن يحصل من العلم ما يؤهله إلى ذلك، وإن كان حاكمًا ببعض الأمور الجزئية كالشقاق بين الزوجين، حيث أمر الله أن نبعث حكمًا من أهله وحكمًا من أهلها، فلا بد أن يكون عارفًا بهذا الأمور التي يريد أن يحكم فيها، ويعرف الطريق التي توصله إلى الصواب منها.

وبهذا بعينه نستدل على وجوب طلب العلم، وأنه فرض عين في كل أمر يحتاجه العبد، فإن الله أمرنا بأوامر كثيرة ونهانا عن أمور كثيرة.

ومن المعلوم أن امتثال أمره واجتناب نهيه يتوقف على معرفة المأمور به والمنهي عنه وعلمه، فكيف يتصور أن يمتثل الجاهل الأمرَ الذي لا يعرفه، أو يتجنب النهي الذي لا يعرفه؟

وكذلك أمره لعباده أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر، يتوقف ذلك على العلم بالمعروف والمنكر، ليأمروا بهذا وينهَوْا عن هذا، فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وما لا يحصل ترك المنهي عنه إلا به فهو واجب.

فالعلم بالإيمان والعمل الصالح متقدم على القيام به، والعلم بضد ذلك متقدم على تركه؛ لاستحالة ترك ما لا يعرفه العبد قصدًا وتقربًا وتعبدًا حتى يعرفه ويميزه عن غيره.

ومن ذلك الأمر بالجهاد، والحث عليه، من لازم ذلك الأمر بكل ما لا يتم الجهاد إلا به، من تعلم الرمي بكل ما يرمى به، والركوب لكل ما يُركب، وعمل آلاته وصناعاته، مع أن ذلك كله داخل دخولَ مطابقة في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [لأنفال: 60] فإنها تتناول كل قوة عقلية وبدنية، وسياسية وصناعية ومالية ونحوها).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ [النساء: 58]، أداء الأمانات إلى أهلها واجب من مطابقة الآية، والآية فيها معاني أخرى مفهومة باللازم، مثل: حفظ الأمانة، وأن يكون حافظ الأمانة عنده قدرة، فمن الخطأ أن تعطي الطفل أمانة، لأنه ما عنده قدرة على حفظها وأدائها فيما بعد.

وقوله: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾، فالعدل واجب بمفهوم المطابقة.

أما المعاني المفهومة باللازم: أن الحاكم يجب أن يكون عالمًا، فلابد أن يتعلم حتى يعرف العدل، لأنه إذا حكم بالجهل ظلم.

ومن هنا نستنبط وجوب طلب العلم، ولابد أن تكون هناك طائفة تطلب العلم حتى يستطيعون أن يحكموا بين الناس بالشرع.

كذلك الأمر بالجهاد، فالله -عَزَّ وَجَلَّ- أمر بالجهاد، ومن ذلك أنه يدخل فيه: كل ما لا يتم الجهاد إلا به، مثل: تعلم الرَّمي، وتعلم الآلات التي يحتاجها المقاتل في سبيل الله، وإن كان هذا يدخل في آية أخرى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: 60]، لكن أوامر الجهاد تدل على هذا المعنى باللوازم، وقِسْ على هذا في الاستنباط من اللفظ على معاني أخرى.

شرب الماء هل هو طعام أو شراب؟

هو شراب، لكن ورد في القرآن أنه طعام، كقوله: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [البقرة: 249]، فصار الماء طعامًا، فنستنبط منه حكمًا آخر، وهذا يعتبر من الاستدلال باللوازم، وهذا باب عظيمٌ إذا فُتح للعبد وفقه الله -عَزَّ وَجَلَّ- لأبواب من الفقه في الدين، لكن لابد أن تكون منضبطة بالقواعد الشرعية من القرآن والسنة.

قال -رَحِمَهُ اللهُ: (القاعدة الثانية عشرة: الآيات القرآنية التي يفهم منها قصَّار النظر التعارض:

يجب حمل كل نوع منها على ما يليق ويناسب المقام كل بحسبه.

وهذا في مواضع متعددة من القرآن:

منها: الإخبار في بعض الآيات أن الكفار لا ينطقون، ولا يتكلمون يوم القيامة، وفي بعضها: أنهم ينطقون ويحاجُّون ويعتذرون ويعترفون: فمحمل كلامهم ونطقهم: أنهم في أول الأمر يتكلمون ويعتذرون، وقد ينكرون ما هم عليه من الكفر، ويقسمون على ذلك، ثم إذا ختم على ألسنتهم وأفواههم، وشهدت عليهم جوارحُهم بما كانوا يكسبون، ورأوا أن الكذب غير مفيد لهم أُخْرِسوا فلم ينطقوا.

وكذلك الإخبار بأن الله تعالى لا يكلمهم، ولا ينظر إليهم يوم القيامة، مع أنه أثبت الكلام لهم معه، فالنفي واقع على الكلام الذي يسرهم، ويجعل لهم نوع اعتبار.

وكذلك النظر والإثبات واقع على الكلام الواقع بين الله وبينهم على وجه التوبيخ لهم والتقريع، فالنفي يدل على أن الله ساخط عليهم، غير راض عنهم، والإثبات يوضح أحوالهم، ويبين للعباد كمال عدل الله فيهم، إذ هو يضع العقوبة موضعها.

ونظير ذلك أن في بعض الآيات أخبر أنه ﴿لا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَاْنٌ﴾ [الرحمن: 39]، وفي بعضها: أنه يسألهم ﴿مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ [الشعراء: 92] و ﴿مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: 65]، ويسألهم عن أعمالهم كلها.

فالسؤال المنفي: هو سؤال الاستعلام والاستفهام عن الأمور المجهولة، فإنه لا حاجة إلى سؤالهم، مع كمال علم الله، واطلاعه على ظاهرهم وباطنهم وجليل أمورهم ودقيقها.

والسؤال المُثْبَت: واقع على تقريرهم بأعمالهم وتوبيخهم وإظهارِ أن الله حكم فيها بعدله وحكمته).

يُبين الشيخ عبد الرحمن السعدي -رَحِمَهُ اللهُ- طريقة عظيمة لأهل العلم الراسخين فيه من أهل السنة والجماعة من أصحاب النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ومَن سار على نهجهم، وهو أنهم يجمعون بين النصوص، فإذا ورد شيءٌ يظهر منه ضعف ما يُعارض في بادئ النظر لم يستعجلوا في ذكر المعارضة أو يثبتونها، وإنما وفَّقوا بين النصوص وألفوا بينها وجمعوا بينها.

ففي مواضع أخبر الله -عَزَّ وَجَلَّ- أن الكفار لا ينطقون ولا يتكلمون يوم القيامة، وفي مواضع بيَّنَ أنهم يتكلَّمون وينطقون ببعض الأمور ويتعذَّرون، فكيف يكون الأمر؟

الجواب: أنهم في أول الأمر يتكلَّمون ويتعذَّرون، ثم بعدَ ذلك يُختَم على ألسنتهم وتبدأ الجوارح أن تتكلم، تنطق أيديهم وجلودهم فتفضحهم. فهذا هو الجمع بين النصوص.

وبالمناسبة: هذا الموضع أشكل على الخوارج، وذكروا هذا الإشكال لعبد الله بن عباس -رَضِيَ اللهُ عَنْهُما- فردَّ عليهم ووضَّحَ لهم، وهذا من شأن أهل البدع، أنهم يأخذون النصوص التي يظهر منها التعارض، ويتوقَّفون ولا يؤلفون ولا يجمعون، قال الله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: 7].

مثال آخر: أخبر الله أنه لا يكلمهم ولا ينظر إليهم يوم القيامة، مع أنه ورد في القرآن أن الله -عَزَّ وَجَلَّ- يكلمهم، مثل قوله لأهل النار: ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: 108]، والنظر واقع عليهم، لأن الله -عَزَّ وَجَلَّ- لا يخفى عليه شيء، فبصره نافذ في جميع خلقه، فكيف الجمع بين قوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ [آل عمران: 77]، وبين إثبات عموم نظره وبصره؟

الجمع هو طريقة أهل السنة والجماعة، وهو أنهم يؤلفون بين النصوص، ما يأخذون النصوص على أنها متعارضة، فيكون نفي تكليم الله لهم ليبين أنه ساخط عليهم في موضع، ومواضع وأهوال القيامة كثيرة، وفي موضع آخر أثبت أنه يكلمهم لكن على وجه التقريع والتوبيخ، فذاك الموضع غير هذا الموضع في الزمان والمناسبة.

وقوله: ﴿لا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَاْنٌ﴾ [الرحمن: 39] من شدَّة الأمر وهول الخطب وعظم العقوبة صار حال المجرم أنه لا يُسأل عن ذنبه، وهل معنى هذا أنه لا يُسأل عن ذنبه مطلقًا؟ أم أن المراد به سؤال الاستفهام والاستعلام؟

لا، هذا أمرٌ لا يحتاج الله إليه، لأن الله يعلم كل شيء، أما السؤال المثبت في قوله: ﴿مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ [الشعراء: 92] و ﴿مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: 65] هذا توبيخ، وإلا فإنَّ الله يعلم حالهم، فالله -عَزَّ وَجَلَّ- يعلم أنهم لم يُجيبوا ولم يُخلصوا العبادة له.

إذًا؛ هذه طريقة مهمَّة في تفسير القرآن، وهي أن يُجمَع بين النصوص على طريقة أهل السنة والجماعة: ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾.

قال -رَحِمَهُ اللهُ: (ومن ذلك: الإخبار في بعض الآيات أنه لا أنساب بين الناس يوم القيامة، وفي بعضها: أثبت لهم ذلك، فالمثبت هو الأمر الواقع والنسب الحاصل بين الناس؛ كقوله: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ \* وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ﴾ [عبس:34، 35] إلى آخرها، والمنفي: هو الانتفاع بها، فإن الكفار يدعون أن أنسابهم تنفعهم يوم القيامة فأخبر تعالى أنه ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ \* إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: 88-89].

ونظير ذلك: الإخبار في بعض الآيات: أن النسب نافع يوم القيامة، كما في إلحاق ذرية المؤمنين بآبائهم في الدرجات، وإن لم يبلغوا منزلتهم، وأن الله يجمع لأهل الجنات والدرجات العالية من صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم، فهذا لما اشتركوا في الإيمان وأصل الصلاح زادهم من فضله وكرمه، من غير أن ينقص من أجور السابقين لهم شيئًا.

ومن ذلك: الشفاعة فإنه أثبتها في عدة مواضع، ونفاها في مواضع من القرآن، وقيدها في بعض المواضع بإذنه ولمن ارتضى من خلقه، فتعين حمل المطلق على المقيد، وأنها حيث نفيت فهي الشفاعة بغير إذنه، ولغير من رضي الله قوله وعمله، وحيث أثبتت فهي الشفاعة التي بإذنه لمن رضيه الله وأذن فيه).

المثال الأول: الأنساب والأموال.

فأخبر الله -عَزَّ وَجَلَّ- عن يوم القيامة: ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: 101]، وفي موضع أثبت بقوله: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ \* وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ﴾ [عبس:34، 35]، وفي سورة المعارج: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ \* وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ \* وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ﴾ [المعارج: 11، 13]؛ فأثبت النَّسب في موضع ونفاه في موضع، فكيف نجمع؟

الجمع واضح، الكفار في الدنيا يعتزُّونَ بأحسابهم وأنسابهم وأموالهم، وهذا كثير، ولهذا في سورة سبأ قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [سبأ: 37]، وقال تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا \* وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا \* وَبَنِينَ شُهُودًا \* وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا \* ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ \* كَلَّا﴾ [المدثر: 11 - 16]، فيحتجُّون بأبنائهم وأموالهم وكثرتها، ويظنون أن هذا محل رضا من الله عليهم، فنفى الله ذلك، وأخبر أنه يوم القيامة لا أنساب بينهم فلا تنتفعون بها.

أما إثبات النسب فهو واقع، فلما بُعث ما تغيَّرَ نسبه، فهو فلان بن فلان، من هذه القبيلة أو تلك، فالنسب واقع ولكن لن ينفعه.

وقوله ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ الأنساب هي القرابات، والمعنى: أنهم لن ينتفعوا بها، وليس معناه أنه لا توجَد الأنساب، بل هي باقية.

وذكر أيضًا أن المؤمنين ينتفعون بصلاح آبائهم أو ذرياتهم، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف: 82]، وقال -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ [الطور: 21].

مثال الشفاعة: تكون الشفاعة يوم القيامة بأن الله -عَزَّ وَجَلَّ- يأذن لمن شاء من عباده الذين يُحبِّهم ويرضى عنهم مثل النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وبقية الرسل والملائكة والصالحون والشهداء والأفراد؛ فيشفعون لبعض أهل الذنوب، حتى يعفو الله عنهم، فيطلبون من الله أن يعفو عن بعض الناس، والشفاعة ثمانية أنواع، وكلها لا تكون إلا بإذن الله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: 255]، وقال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: 28]، ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: 23].

إذًا؛ الشفاعة هي ملك الله، فإذا أذن للرسول -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- شفع الرسول، وهو أول مَن يشفع -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فيخر تحت العرش ساجدًا فيحمد الله -عَزَّ وَجَلَّ- بما شاء الله، ثم يُقال: «يا محمد، ارفع رأسك، وسل تعطه، وقل يسمع، واشفع تشفع. فيقول: يا رب، أمتي أمتي»، اللهم صلِّ وسلِّم عليه.

الشاهد: أنَّ الله -عَزَّ وَجَلَّ- نفى الشفاعة في مواضع، قال -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: 254]، نفى الله الشفاعة مطلقًا، ومما يدل على هذا المعنى قوله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: 44].

وأثبت الشفاعة في مواضع، منها قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: 28]، فأثبتَ الشفاعة بإذنه لمن رضي الله قوله وعمله.

والجمع بينهما أن نقول: الشفاعة المنفية هي التي يظنها المشركون في الدنيا عندما يلجؤون إلى أصحاب القبور أو الجن أو الملائكة أو الأنبياء أو الأولياء ويطلبون منهم في الدنيا، فيلجؤون إليهم ويهتفون بأسمائهم يا فلان اشفع لنا...، فهذا أبطله الله، وهي الشفاعة الشركيَّة، وهي التي كان عليها المشركون قبل الإسلام فأبطلها الله -عَزَّ وَجَلَّ-، فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون غير موجودة يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: 18]، فطلب الشفاعة من هؤلاء في الدنيا شرك، وهذا أمثلته كثيرة.

قال -رَحِمَهُ اللهُ: (ومن ذلك: الأمر بالجهاد في آيات كثيرة، وفي بعض الآيات الأمر بكف الأيدي، والإخلاد إلى السكون، فهذه حين كان المسلمون ليس لهم قوة، ولا قدرة على الجهاد باليد، والآيات الأخرى حين قووا وصار ذلك عين المصلحة؛ والطريق إلى قمع الأعداء.

ومن ذلك: أنه تارة يضيف الأشياء إلى أسبابها التي وقعت وتقع بها، وتارة يضيفها إلى عموم قدره، وأن جميع الأشياء واقعة بإرادته ومشيئته، فيفيد مجموع الأمرين إثبات التو حيد، وتفرد الباري بإيقاع الأشياء بقدرته ومشيئته، وإثبات الأسباب والمسببَّات، والأمرَ بالمحبوب منها، والنهي عن المكروه، وإباحةَ مستوى الطرفين فيستفيد المؤمن الجد والاجتهاد في الأخذ بالأسباب النافعة وتدقيق النظر وملاحظة فضل الله في كل أحواله، وأن لا يتكل على نفسه في أمر من الأمور بل يتكل على الله ويستعين بربه).

هذه أمثلة إضافية للقاعدة، فهناك آيات أمر الله -عَزَّ وَجَلَّ- فيها بالجهاد، فقال: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: 123]، وفي آيات أخرى قال الله -عَزَّ وَجَلَّ- للرسول -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: 199]، فأمر بالإمساك والصبر والإعراض عنهم. فكيف الجمع بينها؟

نقول: الجمع بينها أن الأمر بالإعراض عن الكافرين والصبر عليهم كان في حال الضعف في أول الإسلام، ولما قوي المسلمون أمر الله بالجهاد.

نستنبط من هذا: أن هذه المسألة ترجع إلى ولي الأمر، وترجع إلى قوة المسلمين وحالهم، هل هم عندهم القوة والقدرة فيُجاهدوا العدو. أم لا توجد عندهم القدرة الكافية والقوة فيُصالحوا ويصبروا حتى يُمكنهم الله، وهذا يختلف بحسب الأزمان والأماكن.

قال -رَحِمَهُ اللهُ: (القاعدة الثالثة عشرة: طريقة القرآن في الحجاج والمجادلة مع أهل الأديان الباطلة

قد أمر الله بالمجادلة بالتي هي أحسن، ومن تأمل الطرق التي نصب الله المحاجَّة بها مع المبطلين على أيدي رسله رآها من أوضح الحجج وأقواها، وأقومها وأدلها على إحقاق الحق وإزهاق الباطل، على وجه لا تشويش فيه ولا إزعاج.

فتأمل محاجة الرسل مع أممهم، وكيف دعَوْهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، من جهة أنه المتفرد بالربوبية، والمتوحد بالنعم، وهو الذي أعطاهم العافية، والأسماع والأبصار، والعقول والأرزاق، وسائر أصناف النعم، كما أنه المنفرد بدفع النقم، وأن أحدًا من الخلق ليس يقدر على رفع ولا دفع، ولا ضر ولا نفع، فإنه بمجرد معرفة العبد ذلك واعترافه به لابد أن ينقاد للدين الحق، الذي به تتم النعمة، وهو الطريق الوحيد لشكرها).

قصة إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- في سورة الأنعام وفي سورة مريم؛ انظر إلى المحاجَّة والأدلة التي ذكرها الله -عَزَّ وَجَلَّ- فيما قاله إبراهيم لقومه، وكذلك في سورة الأنبياء والشعراء، كلها تبين لك أنواعًا من الحجج قالها نبي الله إبراهيم -عليه الصلاة والسلام.

وماذا قال موسى -عليه والصلاة والسلام- لما قال له فرعون: وما رب العالمين؟

ذكر ثلاثة براهين كبرى:

الأول: قال ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ [الشعراء: 24]، فذكر أنه رب السماوات والأرض، وفرعون الآن يسمع وهو الذي قال للناس: أنا ربكم الأعلى، ما علمت لكم من إله غيري..، فذكر نبي الله موسى براهن فوقهم وتحتهم وهو السماوات والأرض.

الثاني: برهانًا قبلهم وبعدهم، فقال: الثانية: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: 25].

الثالث: ذكر برهانًا مكانيًّا وهو مشرقهم ومغربهم، ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: 28].

كل هذه مربوبات لله في جميع أحوالها -الزمان والمكان- كله الله هو ربكم وحده لا شريك له؛ فقامت الحجَّة على فرعون، وعرف أنه ليس معه أي برهان، فلجأ إلى التهديد، هو بنفسه يعرف أنه لم يخلق حتى أدنى الأشياء، فهو يدري أنه مخلوق وه أب وله أم، وأنه كان طفلًا وكان عدمًا، كلهم يعرفون هذا عنه، وهو يعرف هذا عن نفسه؛ فانتقل إلى حجَّةٍ يسلكها الطغاة، ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: 29]، فأتاه موسى ببرهان ناصع قاطع، ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ \* قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ \* فَأَلْقَى عَصَاهُ﴾ [الشعراء: 30 - 32]، هذه العصا يتَّكئ عليها موسى، يعني تكون غالبًا أقصر من الرسل، فتكون في حد كتفه أو أقل، فهي ليست عصا كبيرة أو ثقيلة، هذه العصا انقلبت بقدرة الله تعالى إلى حية عظيمة جدًّا التقمت جميع العصي والحبال التي وضعها السحرة وهم جمعٌ غفير، هذا لا يمكن لجميع سحرة العالم أن يفعلوه، فعرف السَّحرة وهم أمهر الناس في السحر وهم كفرة فجرة؛ عرفوا أن هذا ليس من قدرة البشر ولا من قدرة موسى، وأن هذه آية من الله على أنه رسول صادق فأسلموا، فأول النهار كانوا سحرةٌ فجَّار كفَّار، وآخر النهار هم مؤمنون أتقياء أبرار، وهذا يُبين لك أن الساحر قد يتوب، وأن الكافر قد يهتدي، وأن الحجج تنفع، ولكن فرعون لم يستجب، وهذا يُبين لك أن هناك من لا تنفع معه جميع الآيات، فسبحان مَن طبع على قلوب بعض عباده.

إذًا؛ الشيخ هنا يقول لك: كل القصص المذكورة فيها حجج وبراهين قوية جدًّا هي لمحاجَّة أهل الباطل والأديان الفاسدة الكفريَّة، فتأملها!

فقول إبراهيم لأبيه ﴿يا أبتِ﴾ هذا خطاب، لا تظن أنه انتهى ولا نستعمله، بل نستعمله.

قال إبراهيم مخاطبًا أباه المشرك الكافر: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَاأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا \* يَاأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا \* يَاأَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا \* يَاأَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ [مريم: 42 - 45]، هذه الطريقة تنفع نفعًا عظيمًا في الدعوة مع الأديان الباطلة، ولا تستنقص هذه الطريقة، لأنها طريقة القرآن، فاسلكها لأن فيها شفقة وفيها رحمة وفيها حرص على الهداية، وقِسْ على هذا كثيرًا لا يُمكن إحصاؤه.

قال -رَحِمَهُ اللهُ: (وكثيرًا ما يحتج على المشركين في شركهم وعبادتهم لآلهتهم من دون ربهم بإلزامهم باعترافهم بربوبيته، وأنه الخالق لكل شيء، والرازق لكل شيء، فيتعين أن يكون هو المعبود وحده.

فانظر إلى هذا البرهان، وكيف ينتقل الذهن منه بأول وهلة إلى وجوب عبادة من هذا شأنه، ذلك أن آثار ربوبيته تنادي بوجوب الإخلاص له.

ويجادل المبطلين أيضًا بذكر عيب آلهتهم، وأنها ناقصة من كل وجه، لا تغنى عن نفسها فضلًا عن عابديها شيئًا.

ويقيم الأدلة على أهل الكتاب بأن لهم من سوابق المخالفات لرسلهم ما لا يستغرب معه مخالفتهم لرسوله الخاتم محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الذي جاء مصدقًا لما سبقه من الرسالات التي مقصدها جميعًا واحد، وهو فك أغلال التقليد عن قلوب بني آدم لينتفعوا بسمعهم وأبصارهم وأفئدتهم بالتفكر في آيات ربهم، فيعرفوا بذلك أنه الإله الحق، وأن كل ما اتخذه الناس بوحي شياطين الإنس والجن من آلهة، فلا يخرج شيء منها عن أن يكون أثرًا من آثار هذه الآيات، وأنها لذلك لا تليق بأي وجه لمشاركة ربها وخالقها في الإلهية، ولا ينبغي أن تعطى إلا حقها في المخلوقية والعبودية.

وأن الخالق الذي ليس كمثله شيء هو المستحق لكل أنواع العبادة، وأن لا يعبد إلا بما أحب وشرع.

وينقض على رؤساء المشركين ودعاة الباطل دعاويهم الباطلة وتزكيتهم لأنفسهم بالزور، ببيان ما يضاد ذلك من أحوالهم وأوصافهم، ويجادلهم بتوضيح الحق وبيان براهينه، وأن صدقه وحقيقتَه تدفع بمجردها جميع الشبه المعارضة له. ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: 32]).

اعتراف المشركين على اختلافهم بالربوبية كثير، وهذا واقع حقيقة وموجود في جميع أنواع الملل والأديان الباطلة.

في سورة النمل قال تعالى: ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ \* أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ \* أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ \* أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ \* أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ﴾ [النمل: 59 - 63]، هل الاستفهام هنا معناه: أإله مع الله خلق هذا؟

لا، وإنما المعنى: أإله مع الله يُعبَد؟ لأنهم يعرفون أن الله خلق هذا، فتكون الحجة إلزاميَّة عليهم، أإله مع الله يُعبَد وأنتم تعرفون هذا؟!

قال تعالى: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ \* أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ \* أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [النمل: 61 - 63]، فالخطاب هنا لجميع أنواع الكفار، وهذه كلها براهين في إثبات ربوبيَّتهم وإقرارهم بها، واعترافهم، ثم الاحتجاج بها على أنه هو المعبود وحده لا شريك له.

أيضًا ذكر الشيخ ذكرُ عيب آلهتهم، فقال: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ [فاطر: 14]، وقال تعالى: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ\* إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ \* وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ \* وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 195 - 198]، أصنام ما لها قيمة، فتنة عظيمة فُتنوا بها، قال إبراهيم -عليه السلام: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: 35].

ثم انتقل الشيخ إلى موضوع أهل الكتاب، قال: (ويقيم الأدلة على أهل الكتاب بأن لهم من سوابق المخالفات لرسلهم ما لا يستغرب معه مخالفتهم لرسوله الخاتم محمد ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، ولهذا في سورة البقرة وفي سورة آل عمران وفي سورة النساء شيء كثير، لأن هذه السورة مدنيَّة، وكان في المدينة علماء اليهود من أهل الكتاب، فيذكرهم الله -عَزَّ وَجَلَّ- بقوله: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ﴾، و ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ﴾، وهذا كثير في القرآن، فيذكرهم القرآن بجرائمهم التي فعلها أسلافهم وهم راضون بها ويفتخرون بها، حتى اليهود والنصارى الموجودين يذكرون تلك الأفعال القديمة، فيذكرهم الله -عَزَّ وَجَلَّ- بهذه الأمور، وأنهم خالفوا رسله.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة: 67] فأخذوا يتعنَّتون، ما البقرة؟ ما لونها؟ ما كذا؟ حتى قال الله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: 71].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: 55]؛ فلا يُستغرَب الآن من الموجودين مواقفهم من رسالة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أيضًا تزكيتهم لأنفسهم، قالوا: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة: 111]، ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ [البقرة: 80]؛ فردَّ الله عليهم وفضحهم.

قال -رَحِمَهُ اللهُ: (وهذا الأصل في القرآن كثير، فإنه يفيد في الدعوة للحق، ورد كل باطل ينافيه.

ويجادلهم بوجوب تنزيل الأمور منازلها، وأنه لا يليق أن يجعل للمخلوق العبد الفقير العاجز من كل وجه شيئًا من حقوق الرب الخالق الغني الكامل من جميع الوجوه.

ويتحداهم أن يأتوا بكتاب أو شريعة أهدى وأحسن من هذا الكتاب ومن هذه الشريعة، وأن يعارضوا القرآن فيأتوا بمثله إن كانوا صادقين.

ويأمر نبيه بمباهلة من ظهرت مكابرته وعناده فينكصون عنها، لعلمهم أنه رسول الله الصادق الذي لا ينطق عن الهوى وأنهم لو باهلوه لهلكوا.

وفي الجملة لا تجد طريقًا نافعًا فيه إحقاق الحق وإبطال الباطل إلا وقد رسمه القرآن على أكمل الوجوه).

هذه الجملة تحتاج إلى وقفة يسيرة.

يقول الشيخ: إن هذا الأصل -وهو مجادلة أهل الملل الباطلة في القرآن- كثير -أسأل الله أن يفتح علينا وعليكم حتى نكون دعاة للإسلام- فقال: إنه من جُملة الأمور أنه لا يليق أن يُجعل للمخلوق العبد الفقير العاجز بعض حقوق الرب -سبحانه وتعالى- وهذا في سورة الشورى، قال تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الشورى: 9]، فهؤلاء الأولياء اتخذوهم وعبدوهم من دون الله، فقال الله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾، أي: كيف تصرفون حق الله لهؤلاء، ثم بيَّن كماله فقال: ﴿وَهُوَ يُحْيِ الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ \* وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾، أربعة عشر وصفًا لله تدبَّرها واحدًا بعدَ واحدٍ: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ \* فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ \* لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ \* شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا﴾ [الشورى: 10- 13]، هذا الذي يُعبَد.

ومن هنا تعرف أن قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ رد على المشركين أيضًا، فكيف تعبدون غيره وهم ليسوا مثل الله، الله هو الذي يعلم ويرزق ويدبر، وهو الذي يقضي ويرحم ويغفر، وهو الذي يدخل الجنة ويُنجي من النار، وهو الذي يشفي ويعطي، وهو الذي يرفع ويخفض، وهو الذي يُغني ويفقر، وهو الذي بيده مقاليد كل شيء؛ فكيف تتجهون لغيره؟!

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ فهؤلاء ليسوا مثل الله، حتى أفضلهم محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- والملائكة والرسل ليسوا مثل الله، فكيف تتجهون إليهم وتتركون الله.

تدبرها مرة ثانية: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ \* وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ \* فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ \* لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الشورى: 9 - 12]، ثم يتحداهم أن يأتوا بكتابٍ أو شريعةٍ أهدى وأحسن من هذه الشريعة، قال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [القصص: 49]، فهذا نوع آخر من المجادلة لهؤلاء، وهو أن غالبهم من أهل الملل وهم يعلمون من كتبهم أن الله سيبعث رسولًا آخر الزمان، فهذا من جملة ما في كتبهم ولا شك ولا ريب، فالله -عَزَّ وَجَلَّ- محال أن يترك الخلق دون رسالة ودون كتابٍ، فإذا كنتم تكذبون محمدًا -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وتكفرون بالقرآن فأتوني بكتاب أو رسول أهدى مما أرسله الله -عَزَّ وَجَلَّ-، فلا يوجد أهدى منهم -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِم وَسَلَّمَ- ولا أحسن سبيلًا.

أيضًا تحدَّاهم الله أن يُعارضوا القرآن فيأتوا بمثله إن كانوا صادقين.

أيضًا دليل آخر وهو المباهلة، وذكرت في سورة آل عمران، قال -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: 61].

وكما ذكرتُ لكم أن سورة آل عمران في الرد على نصارى نجران، وسبق أن ذكرنا قاعدة مرَّت معنا في الكتاب وهي أنَّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ثم ختم الشيخ القاعدة بقوله: (وفي الجملة لا تجد طريقًا نافعًا فيه إحقاق الحق وإبطال الباطل إلا وقد رسمه القرآن على أكمل الوجوه)، والحمدُ لله رب العالمين، ولهذا ينبغي لنا أن نستغل الوقت والعمر في القرآن العظيم وفي السنة وفي طلب العلم على هدي السلف الصالح من الصحابة ومَن جاء بعدهم ونكثر من الدعاء.

نقف عند هذا الموضع، وأنا أدعوكم لإكمال قراءته والاستماع لشروح مَن شرحه من المشايخ الكرام -جزاهم الله خير- وفيه مواضع مهمَّة للغاية، وإن شاء الله -عَزَّ وَجَلَّ- ييسر قراءتها، وتقرؤون هذا الكتاب في خلوتكم، وإذا أشكل عليكم شيء إن شاء الله يكون هناك تواصل مع مَن تصاحبون أو تجالسون من أهل العلم فتسألونهم عمَّا يُشكل عليكم، ونسأل الله -جل وعلا- في الختام أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وجلاء أحزاننا، وذهاب همومنا وغمومنا، وقائدنا وسائقنا إلى جنات النعيم، اللهم اجعله حجَّة لنا لا علينا، اللهم اجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهلك وخاصَّتك.

اللهم ارزقنا تلاوته على الوجه الذي يُرضيك عنَّا آناء الليل وأطراف النهار يا رب العالمين، اللهم اجعلنا من أتباع القرآن والسنة الثابتين على منهج سلف الأمة يا ذا الجلال والإكرام، اللهم لا تُزغ قلوبنا بعد إذا هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب، اللهم اغفر لنا ولوالدينا ولمشايخنا وعلمائنا ولولاة أمرنا ولجميع المسلمين الأحياء منهم والميتين، اللهم تقبل منَّا واجعل ما قلناه وعملناه وسمعناه في موازين حسناتنا، وتجاوز يا ربنا عن تقصيرنا وتفريطنا وخطئنا وعمدنا وكل ذلك عندنا، فإنه لا حول لنا ولا قوة إلا بك، اللهم بلغنا رمضان، وارزقنا صيامه وقيامه وقيام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا يا ذا الجلال والإكرام،.

اللهم وفقنا في شهر رمضان لاغتنام دقائق وساعاته ولحظاته بكل الأعمال الصالحة، اللهم وفقنا فيه لما ترضى به عنَّا وتعتقنا به من النار، اللهم وفقنا فيه لصالح العمل وصالح الدعاء، اللهم وفقنا فيه لقراءة القرآن وتدبُّره والعمل به، ووفقنا فيه لما تجعلنا به من عبادك الصالحين وأوليائك المتقين وحزبك المفلحين الفائزين بجنات النعيم، اللهم تقبل منَّا يا سميع الدعاء يا ذا الجلال والإكرام، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

ونشكر الله على هذه المجالس، ثم نشكر إخواننا في الأكاديمية العلمية على هذه الجهود المباركة، وكذلك مركز الدعوة والإرشاد في الروضة، وكذلك وزارة الشؤون الإسلامية، وكذلك نشكر مَن قام على هذا المسجد من الإمام والمؤذن جزاهم الله خير الجزاء، والإخوة العاملين في النشر والترتيب.

ونخصُّ بالشُّكر أخانا الذي قرأ الكتاب محمد بن سلطان المقيرن -حفظه الله-، ولكم أيضًا الشكر والتقدير على حضوركم، ونسأل الله أن يجعل هذا علمًا نافعًا لنا، ويرزقنا العمل بالعلم والثبات على الحق، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.